شكوى السّعاة والولاة

من النّشأة إلى آخر القرن الأوّل(*)

بقلم **أحمد الخصخوصي**

اعتبر نوري حمودي القيسي وهلال ناجي محقّقا شعر الراعي النُّميري في دراستهما التمهيديّة ان راعي الإبل «استطاع ان يضيف فنّا جديدا الى فنون الشعر المعروفة وهوشكوى السعاة والولاة» [1]. فما هي أصول هذا الفن ؟ وماهو المدى الذي بلغه ؟ وماهو دور الراعي فيه ؟

يدلّ استقراء الأشعار على أن آخرين سبقوا شاعر بني نمير إلى مثل هذا المعنى إن صح القول، منهم أحد حفداء [2] يزيد بن الصعق اذ بعث

(*) اخترنا هذا الموضوع ونرى من المفيد توضيح عنوانه بما يلي : السعاة هم الذين يأخذون الزكاة من قبل السلطان. والولاة هم حكام الولايات ممن يؤمّرهم الخليفة على الأقاليم والجهات.

أما النشأة فقد حددتها المادة الشعرية المتوفرة لدينا في فجر الإسلام. وأمّا آخر القرن الأول فتاريخ مقترن بأبرز علمين في هذا المجال وهما الراعي النميري وقد توفي حوالي سنة 97 للهجرة وعبد الله بن همّام السلولي المتوفى حوالي 100 للهجرة.

(1) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري،41 - 40، والمشكوون هم حكام الاقاليم والجهات والذين ياخذون الزكاة من قبل السلطان

(2) هو أبو المختار يزيد بن قيس بنّ يزيدبن الصعق (البلاذري، فتوح البلدان، 377) ويزيد بن الصعق جده هو يزيد بن عمرو بن خويلد (الصعق) بن نفيل بن عمرو الكلابي، وهو فارس جاهلي من الشعراء، له اخبار وله ذكر في يوم جبلة (الأصبهاني، الاغاني،11: 159)

شكواه الى ثاني الخلفاء الراشدين، وعمرو بن أحمر الباهلي [3] اذ عاذ في رائيته المشهورة بثالث الخلفاء الراشدين من ظلم السعاة [4] وانس بن أبي اياس [5] إذ خاطب حارثة بن يدر الغداني [6] وابو الأسود الدؤلي[7] إذ ناشد عبد الله بن الزبير أن يعزل أحد ولاته [8] وعبد الله بن همّام

---

(3) هو عمرو بن احمد بن العمرد بن عامربن عبد شمس بن فراص بن معن بن اعصربن قيس عيلان بن معد. ابوالخطاب. وهوشاعر مخضرم وكان من شعراء الجاهلية وأدرك أيام عبد الملك بن مروان. له مدائح في عمرو عثمان وعلي وخالد (الاصبهاني. الاغاني. 8 : 241 - 242) .كان يتقدم شعراء زمانه وعده ابن سلام في الطبقة الثالثة من الاسلاميين (ابن سلام الجمحي. طبقات الشعراء الجاهليين والاسلاميين : 190 - 191) عاش نحو تسعين سنة وتوفي نحو 65 هـ/ 685 م (الزركلي. الاعلام. 5 : 73).

(4) ابوزيد القرشي. جمهرة أشعار العرب. 305 - 301.

(5) انس بن زنيم بن محمية بن عبد عدي بن الديل بن بكر بن كنانة.شاعر من الصحابة نشا في الجاهلية. ولما ظهر الاسلام هجا النبي صلى الله عليه وسلم فأهدر دمه فأسلم يوم الفتح ومدح رسول الله بقصيدة فعفا عنه. عاش إلى أيّام عبيد الله بن زياد (الاصبهاني. الاغاني. 8: 398 - 399) وتوفي نحو سنة 60 هـ / نحو 680 م (الزركلي. الاعلام. 2 : 24).

(6) حارثة بن بدر بن حصين بن قطن بن غدانة بن يربوع. وقيل حارثة بن بدر بن مالك بن كليب بن غدانة ابن يربوع (الاصبهاني. الاغاني. 8 : 394 - 433) تابعي من اهل البصرة. قيل : أدرك النبي صلى الله عليه وسلم له اخبار في الفتوح وقصة مع عمر وعلي واخبار مع زياد وغيره في دولة معاوية وولده. أمّر على قتال الخوارج في العراق فهزموه بنهر تيرا من نواحي الأهواز. فلما أرهقوه دخل سفينة بمن معه فغرقت بهم. توفي سنة 64 هـ/684 م (الزركلي. الاعلام ، 2: 162).

(7) هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الديل بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار (الأصبهاني. الأغاني. 12 : 346) كان معدودا من الفقهاء والاعيان والامراء والشعراء والفرسان والحاضري الجواب (الزركلي. الأعلام 3 : 340).

(8) الجاحظ . البيان والتبيين. 1 : 196.

السلولي [9] إذ توجه بشعره كذلك إلى ابن الزبير [10] باعتباره أمير المؤمنين.

وإذا أراد الباحث أن يتناول بالدرس ما تجمّع من مادّة هؤلاء ناظرا إلى مسيرتها من حيث النشوء والنموّ تبادر إلى ذهنه اعتماد الترتيب الزمني عساه يقود إلى استنتاجات مناسبة لتطور هذا الفن.

ويظهر - اعتبارا للمادّة المتوفرة لدينا - أنّ أولى الأشعار التى انشئت في هذا الباب ما قاله ابو المختار [11] يزيد بن قيس بن يزيد بن الصعق في عهد عمر بن الخطاب حين تناول الشاعر عمال الأهواز وغيرهم ورفع أمرهم الى ثاني الخلفاء الراشدين.و هو عبارة عن مقطوعة تضمّ اثني عشر بيتا [12]. ويبدو - بالنظر الى تسلسل المادّة الزمني - أنّ الذي تلا ما تقدم هو القصيدة [13] التي أنشأها عمرو بن أحمر الباهلي [14] في عهد عثمان بن عفان [15].

---

(9) هو عبد الله بن همّام بن نبيشة بن مالك بن الهجيم بن حوزة بن عمرو وقيل عمير بن مرة بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن. من شعراء الدولة الاموية. والسلولي نسبة الى امهم سلول. توفي حوالي سنة 100 هـ /موافق لنحو 614 م (الزركلي. الاعلام 4 : 143) جمع جزءا من اشعاره الاستاذ حمد الجاسر ثم جمع الديوان وحققه وقدم له رفيق بن حمودة (مخطوطة حصل بها صاحبها سنة 1975 على شهادة الكفاءة في البحث من الجامعة التونسية).

(10) الأصبهاني. الاغاني. 3 : 358.

(11) هكذا ورد اسم الشاعر (البلاذري. فتوح البلدان. 377) ويبدو انه حصل بعض اللبس في ما يتعلق باسم صاحب الأبيات المشار اليها .من ذلك ان بعض المؤلفين قال : .والمختار بن قيس بن يزيد بن قيس بن يزيد بن عمرو بن الصعق وهو الذي كتب الأبيات الى عمر - رضي الله عنه - التي كانت سبب مشاطرته لعماله .(ابن حزم الاندلسي. جمهرة انساب العرب. 287 - 286) أما محققا شعر الراعي النميري فقد ذهبا الى ان صاحب الرسالة الشعرية هو يزيد بن الصعق (نوري حمودي القيسي وهلال ناجي. شعر الراعي النميري. 31 - 32) ونسبة الابيات الى يزيد بن الصعق لا تستقيم لأن يزيد هذا فارس جاهلي من فرسان العرب ورد ذكره في يوم جبنة اي قبل الاسلام بحوالي 59 سنة (الاصبهاني. الاغاني 11 : 159).

(12) البلاذري. فتوح البلدان. 377.

(13) أبو زيد القرشي. جمهرة أشعار العرب. 301 - 305.

(14) الأصبهاني. الأغاني. 8 : 241 - 242. الزركلي. الاعلام. 5 : 73.

(15) الاصبهاني. الاغاني . 8 : 242.

ويمكن للدارس أن يتبيّن على وجه التقريب التآريخ التي قيلت فيها بعض الأشعار مثل التي قيلت لحارثة بن بدر الغداني بمناسبة ولايته أرض سرّق [*] بعيد وفاة زياد بن ابيه [16] اي حوالي سنة ثلاث وخمسين للهجرة [17].

أمّا الأبيات [18] التي توجّه بها عبد الله بن همّام السلولي الى النعمان بن بشير الأنصاري فالثابت انها قيلت بعد أن عزل عبد الرحمان بن أمّ الحكم [19] عن الكوفة وخلفه عليها النعمان بن بشير سنة تسع وخمسين للهجرة [20].

غير أن تحديد المناسبات التي قيلت فيها مثل هذه الأشعار أو التآريخ التي أنشئت فيها لا يتيسّر عامّة، ومن العسير - في بعض الأحيان - أن يتحقق المرء حتى من أصحاب المقطوعات. هذه المقطوعات التي تنسب تارة إلى هذا الشاعر وطورا الى ذاك، فأبيات الشعر التي توجّه بها صاحبها إلى حارثة بن بدر الغداني منسوبة في عدد من المؤلفات إلى ابي الأسود الدؤلي [21]، وهذه الأبيات ذاتها منسوبة في عدد من الآثار الأخرى إلى أنس بن أبي إياس [22]، ويجد المرء في مواطن

(*) سرق بضم أوله وفتح ثانيه وتشديده وآخره قاف .لفظة عجمية وهي احدى كور الاهواز. نهر عليه بلاد حفره اردشير بهمن بن اسفنديار القديم ومدينتها دورق (ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 : 214).

(16) الأصبهاني، الاغاني ، 8 : 396.

(17) الزركلي، الاعلام، 3 : 53.

(18) الأصبهاني، الاغاني، 16 : 38 - 39.

(19) الأصبهاني، الاغاني، 14 : 218.

(20) الأصبهاني، الاغاني، 14 : 218.

(21) البلاذري، فتوح البلدان، 372. الأصبهاني، الأغاني، 8 : 415 - 416)، ابن عبد ربه، العقد الفريد، 3 : 63، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 : 241.

(22) الجاحظ، الحيوان ، 3 : 116 ، 5 : 255، ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 624، العقد الفريد 363 - 364.

أخرى الأبيات التي كتبها عبد الله بن همّام السلولي [23] منسوبة الى أنس بن أبي أناس [24]. ومن عجب كذلك أن يجد الباحث في الأثر الواحد الأبيات منسوبة الى أنس بن زنيم الليثي بإسناد [25] ثم لا يلبث المؤلّف أن يورد بإسناد آخر نسبتها الى عبد الله بن همّام السلولي .يقول ابو الفرج الأصبهاني : «وأخبرني أحمد بن عبد العزيز الجوهري قال حدثنا عمر بن شبة قال : هذه الأبيات لعبد الله بن همّام السلولي» [26].

وهكذا فإنّ مثل هذه المعطيات المتباينة حينا المتناقضة حينا آخر من شأنها أن تجعل الوقوف على استنتاجات حاسمة يطمئن اليها الباحث أمرا صعب المنال،و حتى إذا حاول الدارس أن يتلطّف في طلب أدلّة منطقية تستند إلى سيرة الشاعر أو اهتماماته أعوزته الحجج البالغة. فإذا نشد الباحث مثلا - و لو على سبيل الترجيح - قولا فصلا بين أنس بن أبي أناس من جهة وأبي الأسود الدؤلي من جهة ثانية حالت بينه وبين ما ينشد مشابه عديدة. فأنس وأبو الأسود أصلهما من الدول [27]، الأوّل معدود من الصحابة والثاني معدود من التابعين [28] وقد عاشا في فترة واحدة تقريبا حتى إن وفاتيهما حصلتا في تاريخين متقاربين [29] ثم إن

(23) الأصبهاني، الأغاني، 16 : 164.

(24) ورد اسم الشاعر في بعض المصادر على النحو التالي أنس بن أبي أناس (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 2 : 623 - 624).

(25) الأصبهاني، الأغاني، 3 :357.

(26) الأصبهاني، الأغاني ، 3 : 358، 16 : 164.

(27) أنس بن ابي أناس، أبوه زنيم وهو من كنانة من الدول (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 2 : 263) وأبو الأسود هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن يعمر بن حلس بن نفاثة بن عدي بن الدئل (الأصبهاني ، الأغاني، 12: 364).

(28) أنس بن زنيم شاعر من الصحابة (الزركلي، الأعلام، 2 : 24) وأبو الأسود تابعي معروف (الأصبهاني، الأغاني، 12 : 349) كان كاتبا لابن عباس على البصرة .(الأصبهاني، الأغاني، 12 : 351)، واستعمله علي رضي الله عنه على البصرة بعد ابن عباس .(الأصبهاني، الأغاني، 12 : 346) وانظر الزركلي، الأعلام، 3 :340.

(29) توفي أنس بن زنيم الليثي نحو سنة 60 هـ /680 م (الزركلي، الأعلام، 2 : 24) وتوفي أبو الأسود نحو سنة 69 هـ أو قبل ذلك (الأصبهاني، الأغاني، 12 : 386).

كلاّ منهما كان مجالسا لحارثة بن بدر مؤالفا له [30]. وحتى إذا نظر الدارس الى آثارهما المنسوبة الى كل واحد منهما على حدة ألفى مشاغلهما متشابهة [31]. ومن العجيب في هذا الباب أن أبياتا تنسب كلّيا أو جزئيّا الى شاعرين مختلفين تباعدت بعض التباعد الحقبتان الزمنيتان اللتان عاشا فيهما مثلما يدلّ على ذلك التاريخان اللذان توفي فيهما هذا العلم وذاك [32]. وعلى سبيل المثال تنسب أبيات من الشعر تارة الى عبد الله بن همام السلولي وطورا الى فضالة بن شريك مع إضافة أو نقص أو تقديم أو تأخير [33].

---

(30) كان أبو الأسود من جلاس حارثة بن بدر (الأصبهاني. الاغاني. 8 : 431) وكان بين أنس وحارثة مودة (الأصبهاني. الاغاني. 8 : 399).

(31) تنسب الى أنس بعض المقطوعات التي تتناول الجانب السياسي والاجتماعي (ابن قتيبة. الشعر والشعراء. 623 - 624. الأصبهاني. الاغاني. 3 : 357) أما أبو الأسود فتنسبت اليه دون غيره مقطوعة ذات مضمون سياسي واجتماعي أنشأها في الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرةبن عبد الله بن مخزوم وكان أحد ولاة البصرة وولاّه عليها عبد الله بن الزبير (الجاحظ. البيان والتبيين. 1 : 196).

(32) توفي فضالة بن شريك بعد سنة 64 هـ /684 م (الزركلي. الأعلام. 5 : 146) بينما توفي عبد الله بن همام السلولي حوالي سنة 100 هـ / 718 م (الزركلي. الأعلام. 4 : 143).

(33) جاء في تأليف من التآليف قول صاحبه : «تزوج عامر بن مسعودبن أمية بن خلف الجمحي امرأة من بني نصر بن معاويةو سأل في صداقها بالكوفة فكان يأخذمن كل رجل سأله درهمين درهمين فقال له قضالة بن شريك يهجوه بقوله :

أنكحتم يا بني نصر فتاتكم ... وجها يشين وجوه الربرب العين
أنكحتم لا فتى دنيا يعاش به ... ولا شجاعااذا انشقت عصا الدين
قد كنت أرجو أباحفص وسنته ... حتى نكحت بأرزاق المساكين

(الأصبهاني. الأغاني. 12 : 94)

وجاء في بعض التآليف الأخرى ان منشئ الأبيات وعددها خمسة هو عبد الله بن همام السلولي وهي :

ما زلت أرجو أبا حفص وسيرته ... حتّى نكحت بأرزاق المساكين
أنكحتم يا بني نصر فتاتكم ... وجها يشين وجوه الربرب العين
أنكحتم لا فتى دنيا يعاش به ... ولاشجاعا اذا شقت عصا الدين
يا ابن الزبير لقد وليته شبقا ... كز اليدين بخيلا غير عنين
لا يستطف له مال فيتركه ... ولا يقول لما يعطاه يكفيني

(البلاذري. أنساب الأشراف. 5 : 190).

ومهما يكن من أمر وحتى على فرض أن الباحث تمكّن من تذليل هذه الصعوبات الموضوعية القائمة ووفّق في تحديد الترتيب الزمني لكافة الأشعار المتوفرة تحديدا دقيقا فإنّ نتائج ذلك ربّما صلحت للتوثيق التاريخي أكثر مما تصلح للدراسة الأدبية من جهة سيرورة الظاهرة وتطوّرها لا سيما أن أصحاب هذه الأشعار لم يجتمعوا ولا توالوا في حيّز مكاني واحد يمكّنهم - آليا - من الاطلاع على آثار بعضهم البعض حتى يقدّر الدارس أنّ لمفعول تراكم المادّة الكمّي والنوعي أثرا معلوما أو آثارا معينة في توجّه هذا الفن وتطوّره. من هنا ربما كان من الوجاهة بمكان أن ينطلق المرء من الأشعار الأكثر بساطة ويتتبّع درجات ترقّيها طورا بعد طور سواء في ما يتعلّق بمعناها أو ما يتّصل بمبناها. ويبدو أن نواة هذا الفن المعنوية كانت في أوّل أمرها ما يلاحظه الملاحظ مما يمكن التعبير عنه بعدم الأهلية ومايلمسه اللامس من صفات سلبية سواء ردت إلى الطبع الراسخ في الطينة أو أرجعت إلى المسلك العملي الذي دأب عليه صاحبه، الأمر الذي يجعله في كل الأحوال غير جدير بالمحلّ الذي شغله أو الخطة التي أقرّ فيها.

إن مثل ما تقدّم هو الذي جعل عبد الله بن همّام السلولي يطعن في أمانة الفلاقس[34] النهشلي حين ولي شرطة الحارث بن عبد الله.وهو الذي جعل الشاعر يقول ذامّا زمانه متبرّما بسواد صاحب الشرطة | الطويل | :

أقلّي علي اللوم يا ابنة مالك ... وذمّي زمانا ساد فيه الفلافس

وساع مع السلطان يسعى عليهم ... ومحترس من مثله وهو حارس[35]

كذلك أشار الشاعر ذاته - و إن بطريقة غير مباشرة - إلى عدم أهلية عامر بن مسعود لولاية أمر الكوفة فقال فيه بلغة ساخرة ولهجة لاذعة | البسيط | :

(34) هكذا ورد اسم المهجو في بعض المؤلفات (أنظر مثلا ابن قتيبة. الشعر والشعراء، 2 : 545).

(35) البلاذري. أنساب الأشراف. 5 : 190.

اشرب شرابك وانعم غير محسود   واكسره بالماء لا تعص ابن مسعود
إنّ الأمير لـه في الخمـر مأربـة   فاشرب هنيئا مريئا غير تصريد[36]

وهكذا عابه بشرب الخمر والدعوة اليها.

وغير بعيد من هذا ما أخذه عبد الله بن همّام السلولي على قتيبة بن مسلم حين ولاّه عبد الملك بن مروان خراسان بعد أن عزل عنها يزيد بن المهلّب. قال الشاعر | الكامل | :

أقتيـب قـد قلنـا غـداة أتيتنا   بـدل لعمـرك من يزيـد أعـور
إنّ المهلّـب لـم يكـن كأبيكـمُ   بالسيف سمّـر والحـروب تسمّـر
حولان باهلـة الألـى في ملكهـم   مات الندى فيهم وعاش المنكر[37]

يقصد الشاعر أن قتيبة لايصلح للإمارة ولا للحرب بل يصلح للطرب باعتبار ما يقال عنه من أنه كأن يضرب بالصنج في أوّل أمره. ولعلّ في تعداد هذه الأمثلة - وهي لشاعر بعينه معروف برصده لمثل هذه الظواهر وانشائه فيها - ما يدل على أن هذا المعنى ربما اقترن في أصل منشئه بغرض الهجاء حتّى لكأنّما انبثق من تربتِه انبثاقا ولعلّ مما يدل على ذلك أيضا الشكل الظاهري لما أورده صاحب الحيوان من أبيات نسبها الى أنس بن أبي أناس[38] يخاطب بها حارثة بن بدر الغداني حين ولي أرض سرّق[39]. قال الشاعر | الطويل | :

أحار بن بـدر قد وليـت ولايـة   فكن جرذا فيها تخون وتسـرق
وبـاه تميمـا بـالغنـى ان للغنـى   لسـانا به المـرء الهيوبـة ينطـق
فإنّ جميـع النـاس إما مكـذّب   يقـول بما تهـوى وإمّا مصـدّق

---

(36) ابن خلكان. وفيات الأعيان. 4 : 290 - 291.
(37) هذه الأبيات منسوبة كذلك الى أبي الأسود الدؤلي (الأصبهاني. الأغاني. 8 : 415 - 416. ابن عبد ربه. العقد الفريد. 3 : 63. ياقوت الحموي معجم البلدان. 3 : 214).
(38) ياقوت الحموي. معجم البلدان. 3 : 214.
(39) الجاحظ. الحيوان. 5 : 255.

يقولـون أقـوالا ولا يعلمونهـا وإن قيل هاتوا حقّقوا لم يحققوا
فلا تحقرنْ يا حار شيئا أصبتـه فحظك من ملك العراقين سرّق[40]

تبدو هذه المقطوعة للوهلة الأولى هجائية الغرض حتّى لكأنما يسخر الشاعر من حارثة بن بدر ويهزأ به حين يدعوه الى خيانة الأمانة وإلى أن يكون في سرقة الأموال مضربا للأمثال[41]، وهو أمر يناسب الى حدّ بعيد سيرة حارثة غير الحميدة لا سيما أنه «كان يسعى في الأرض فسادا»[42] الأمر الذي جعل رابع الخلفاء الراشدين يهدر دمه. غير أنّ سياق المقطوعة العامّ لا يدلّ على ذلك[43] فاذا اعتبر الباحث جواب حارثة[44] واطّراح الكلفة بين الرجلين[45] تبيّن أن مغزى الأبيات مجرّد دعابة جارية بين صديقين متآلفين متآنسين، الأمر الذي جعل محقّق كتاب الحيوان يذهب هذا المذهب[46].

(40) ساق الجاحظ هذه الأبيات على أثر ذكره للحيوان الذي يضرب به المثل في السرقة فقال : «ويقال أسرق من جرذ» (الحيوان، 5 : 254).
(41) الأصبهاني، الأغاني، 8 : 418.
(42) الأصبهاني، الأغاني، 8 : 418.
(43) يقول الجاحظ في هذه الأبيات : «فلما بلغت حارثة بن بدر قال : لا يعمى عليك الرشد» (الحيوان، 5 : 255). ويقول ابن عبد ربه بعد ايراد الأبيات المذكورة : «فوقع حارثة في أسفل كتابه : لا بعد عنك الرشد» تعبيرا عن رضاه (العقد الفريد، 6 : 364). أما صاحب الأغاني فيفصّل الأمر فضل تفصيل ويقول : «فقال له حارثة :
جزاك مليك الناس خيـر جزائـه فقد قلت معروفـا وأوصيت كـافيـا
أمـرت بحـزم لو أمـرت بغيـره لألفيتنـي فيـه لرأيـك عاصيـا
ستلقى أخا يصفيك بالـود حاضـرا ويوليك حفظ الغيب ان كنت نائيـا
(الأصبهاني، الأغاني، 8 : 416) وأنظر أيضا (ياقوت الحموي،معجم البلدان، 3 : 214) ولعل مجمل ما تقدم هو الذي جعل محقق كتاب الحيوان يقول : «والمفهوم أن الشعر الآتي مداعبة لا هجاء» (الجاحظ، الحيوان، 3 : 116، أنظر الهامش رقم 2).
(44) الجاحظ، الحيوان، 5 : 255، ابن عبد ربه، العقد الفريد، 6 : 364.
(45) الأصبهاني، الأغاني، 8 : 398 - 402.
(46) الجاحظ، الحيوان، 3 : 116.

وسواء تعلّق الامر في المقطوعات السابقة بالسرقة أو العجز أو أكل الأموال أو خيانة الأمانة فان هذه المعايب يمكن ردّها إلى ما سبق التعبير عنه من عدم أهلية المهجو باعتباره من غير أهل الفضل والكفاية فلا هو قائم بالأمر ولا هو قويّ عليه.

وإلى هذا الحدّ تبدو الوحدة المعنوية أعلق بغرض الهجاء حتى لكأنها شعبة من شعبه. كما تبدو في هذه المرحلة الأوّلية - من حيث البنية - مستقلّة عن غيرها مكتفية بذاتها لا تسبقها مقدمة تمهّد لها ولا تعقبها خاتمة تلخّصها أو تكمّلها. لهذا يمكن للمرء أن يقدّر أن الهيكل المناسب لمثل هذه الوحدة المعنوية المفردة من جهة الحجم والصورة أنّما هو هيكل المقطوعة المؤلّفة من بيتين أو بضعة أبيات محدودة العدد.

وقد يتبيّن الدّارس مرحلة أخرى من تطوّر هذا الفن تحملها بعض المقطوعات الأخرى كما هو شأن المقطوعة التي أنشأها أبو الأسود الدؤلي يخاطب بها عبد الله بن الزبير بصفته أمير المؤمنين. يقول الشاعر | الوافر | :

أمير المؤمنين جزيت خيرا   أرحنا من قباع بني المغيره
بلوناه فلمناه فأعيا   علينا ما يمرّ لنا مريره
على أن الفتى نكح أكول   ومسهاب مذاهبه كثيره (47)

على هذا النحو يتوجّه الشاعر إلى ابن الزبير بالنداء فيبادر بالدعاء له.و لا يلبث أن يطلب اليه - بطريقة شبه مباشرة - إزاحة المجموعة من الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة وعزله عن ولاية البصرة.و ما هي إلاّ أن يقدّم تعليله استنادا إلى الأصول الأخلاقية والقواعد السياسية فقد ثبت عند الجماعة بعد الاختبار والتجريب عدم كفاية الحارث اضافة الى المآخذ الأخلاقية التي أخذت عليه نظرا لغلبة الشهوات على طباعه. وكأنما يبدو العنصر المحدّد للطلب المتقدّم إنّما هو العنصر السياسي باعتبار أن هذا المسؤول لا يمضي أمرا ولا يحسن معاملة الناس.

(47) الجاحظ. البيان والتبيين. 1 : 196. الأصبهاني. الأغاني. 1 : 119.

ورغم تعدد الدلالات الواردة في هذه الأبيات فإنّ الإطار التأليفي الذي سيقت فيه هو سياق الهجاء إذ ذكرها صاحب البيان والتبيين في معرض حديثه عن حمد الصمت [48] وذمّ الإسهاب باعتباره صفة مرذولة يتعوّذ منها المتعوّذون [49]. وقد كان صاحب الأغاني أكثر تصريحا حين قدّم هذه الأبيات بقوله: «وقال أبو الأسود الدؤلي - وقد عتب عليه - يهجوه» [50].

على أن المقطوعة السابقة - وإن كانت من حيث الحيّز النصّي الذي احتلته معانيها هجائية الغرض - قد اشتملت على بعض العناصر الجديدة لأنّ ذمّ المذموم لم يعد الوحدة المعنوية الوحيدة.ذلك أن الشاعر استهلّ أبياته بنداء أمير المؤمنين والدعاء له وشفع ذلك بطلب محدد يتمثّل في إراحة المجموعة وذلك بإزاحة من يمكن اعتباره المسؤول الجهوي الإداري والسياسي.فبعد أن كانت الوحدة المعنوية مكتفية بذاتها مستقلة بنفسها أضحت - بفعل موقعها من المقطوعة وبحكم منطقها الوظيفي - مضافة تابعة باعتبارها مرتكزا من مرتكزات التعليل الداعم الرئيسية ألا وهو دعوة أمير المؤمنين الى خلع واليه الذي تجسّمت فيه صفات التقصيرو سمات القصور.

ويمكن - بالاضافة الى ذلك - أن يتبين المرء أنّ الشاعر لا ينطق بلسان المفرد ولا يعبّر عن رغبة شخصية بل يتحدّث بضمير الجمع ويعبّر - في أكثر من موضع - عن رغبة جماعية جامعة يتّجه بها في رفق وتلطّف إلى المرجع الديني والسياسي.

وابتداء من هذا المستوى تبدأ الشكوى في البروز والتمحّض شيئا فشيئا. فقد اتّضحت طبيعتها وتحدّدت أطرافها وفي مقدّمتها المشتكى

(48) الجاحظ. البيان والتبيين. 1 : 194 - 195.

(49) أخبر ابن الأعرابي أن ابن عمر قال : «نعوذ بالله من الإسهاب».(الجاحظ. البيان والتبيين. 1 : 196).

(50) الأصبهاني. الأغاني. 1 : 119.

إليه لما له من إمارة بيّنة وأمر نافذ [51]، وفي هذا الحقل لا يسع المرء إلاّ أن يلتفت الى باكورته الجنيّة وتتمثّل في الأبيات التي أنشأها يزيد بن قيس بن يزيد بن الصعق قائلا | الطويل | :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة — فأنت أمين الله في النهي والأمر
وأنت أمين الله فينا ومن يكن — أمينا لرب العرش يسلم له صدري
فلا تدعنْ أهل الرساتيق والقرى — يسيغون مال الله في الآدم الوفر
فأرسل الى الحجّاج فاعرف حسابه — وأرسل الى جَزْء وأرسل الى بشر
ولاتنسينّ النافعين كليهما — ولا ابن غلاّب من سراة بني نصر
وما عاصم منها بصفر عيابه — وصهر بني غزوان إنّي لذو خَبْرِ
وشبلا فسلهم المال وابن محرّش — فقد كان في أهل الرساتيق ذا ذكر
فقاسمهم أهلي فداؤك إنّهم — سيرضون إن قاسمتهم منك بالشطر
ولاتدعونّي للشهادة إنّني — أغيب ولكنّي أرى عجب الدّهر
نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا — فأنّى لهم وفر ولسنا أولي وفر
إذا التاجر الداري جاء بغارة — من المسك راحت في مفارقتهم تجري [52]

وهذه الرسالة عبارة عن مقطوعة شعرية ذات موضوع واحد هو الشكوى بما هي إخبار عن المشكوّ بسوء فعله غيره [53] ولئن كانت الشكوى واحدة فان طبيعتها تلك لم تمنع تعدّد أطرافها، فهذا مشكوّ إليه، وهؤلاء مشكوّون، وذلك شاك في صيغة الجمع، أمّا المشكوّ إليه فهو أمير المؤمنين، وقد استهلّ به الشاعر مقطوعته وخصّه بيتين ذكّر فيهما بوظائفه ومهامّه وما تتطلّبه من خلال وخصال باعتباره محلّ ثقة وموضع أمانة. لذلك استعمل الشاعر السجلّ الديني والسياسي فجاءت المفردات غزيرة والمصطلحات وافرة حتى خرج عمر بن الخطاب في صورة المرجع المعنوي والسلطة المحكّمة.

---

(51) لسان العرب، مادة أمر.

(52) البلاذري، فتوح البلدان، 377.

(53) لسان العرب، مادة شكا.

وأمّا المشكوّون فهم «أهل الرساتيق والقرى» من العمّال ومن إليهم من الأعوان في جهاز الدولة الإداري. وقد جاءت الأبيات حافلة بأسمائهم [54] وقد أكلوا «مال الله» واستولوا على متاع غيرهم، لذلك استعمل الشاعر السجلّ الإداري حتى يبرز مشاغل الشاكين الدنيوية وقد ندب نفسه لينطق بألسنتهم.

ويبدو أن الموضوع - بحكم وحدته من ناحية وبفعل تعدّد أطرافه من ناحية أخرى - قد ساهم بنصيبه في تحديد مبنى المقطوعة وصياغتها، فالهيكل - في صميم مبناه - لا يختلف كثيرا عن المقطوعة القصيرة التي شكا فيها أبو الأسود الدؤلي الحارث بن عبد الله الملقب بـ «القباع» [55]. لكنّ مقطوعة أبي المختار طالت بعض الطول لأن صاحبها نشر الحديث بعض النشر في ما يتّصل بأمير المؤمنين وفصّل القول في ما يتعلّق بالعمّال ومن إليهم من أعوان الإدارة، لذلك فان اظهار ما يوصف به المشكو من مكروه [56] قد اقتضى أسلوبا اخباريا صور فيه الشاعر صفات العمال وقرر أفعالهم. أما الدعوة إلى تغيير الحالات القائمة فقد استدعت أسلوبا إنشائيا تتابعت فيه دفعات حثيثة من الطلبات على سبيل النهي والتحضيض آنا والأمر والتعريض آونة إضافة الى الدعاء الاستحثائي.

---

(54) من هؤلاء الحجاج بن عتيك الثقفي وكان على الفرات .وجزء بن معاوية وكان على سرق، وبشر بن المحتفز وكان على جنديسابور. والنافعان نفيع بن بكرة ونافع بن الحارث بن كلدة أخوه، وابن غلاب وكان على بيت المال بأصبهان. وعاصم بن قيس بن الصلت السلمي وكان على مناذر والذي في السوق هو سمرة بن جندب وكان على سوق الأهواز. والنعمان بن عدي بن فضلة بن عبد العزى بن حرثان وكان على كور دجلة . وصهر بني غزوان هو مجاشع بن مسعود السلمي وكان على أرض البصرة وصدقاتها، وشبل بن معبد البجلي ثم الأحمسي وكان على قبض المغانم، وابن محرّش ابو مريم الحنفي وكان على رام هرمز (البلاذري، فتوح البلدان، 377 - 378).

(55) جاء في بعض المؤلفات أن عبد الله بن الزبير استعمل الحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة على البصرة .فأتوه بمكيال لهم. فقال لهم : ان مكيالكم هذا لقباع فغلب عليه .(الأصبهاني، الأغاني، 1 : 119) وقيل أيضا .وإنّما سمّي القباع لا نّه أتي بمكتل لأهل المدينة فقال : إنّ هذا المكتل لقباع. فسمّي به. والقباع : الواسع الرأس القصير. (الجاحظ، البيان والتبيين، 1 : 196).

(56) لسان العرب، مادة شكا.

ويختتم الشاعر أبياته بتعليله لدعواته المتكرّرة المتمثّلة في محاسبة العمّال والساهرين على شؤون الأسواق والأموال ومقاسمتهم شطر أموالهم. وعلى هذا النحو تبدو المقطوعة مصوغة صياغة لا تخلو من تسلسل محكم: تقديم يتعلّق بالمشكوّ إليه يتبعه عرض فمقترح فتعليل. يرد كلّ ذلك في وحدة موضوعية وبنيوية بيّنة الحدود واضحة المعالم.

ويلاحظ - كما هو الحال في مقطوعة أبي الأسود الدؤلي - أنّ الشاعر - وإن تكلّم أحيانا بضمير المفرد - فانه في أحايين أخرى ينطق باسم الجماعة زيادة على أنّه - بما هو آمر ناه - قد أكسب نفسه سلطة معنوية معتبرة [57] حتى أضحى ضمير المجموعة النابض حياة وحميّة ولسانها الناطق جرأة وجسارة.

ويحدث أحيانا أن لا يتّجه الشاعر الى المرجع الديني والسياسي ويلتفت الى المعنيّ بالأمر مباشرة معرضا عما له صلة بالهجاء. مثال ذلك ما أتاه عبد الله بن همّام السلولي عندما خاطب النعمان بن بشير الأنصاري فقد «أمر معاوية لأهل الكوفة بزيادة عشرة دنانير في أعطيتهم وعامله يومئذ النعمان بن بشير وكان عثمانيا وكان يبغض أهل الكوفة لرأيهم في عليّ عليه السلام. فأبى أن ينفذها لهم. فكلّموه وسألوه بالله فأبى أن يفعل» [58] فقال عبد الله بن همّام السلولي | الطويل | :

زيادتنا نعمان لا تحبسنّها خف الله فينا والكتاب الذي تتلو
فإنّك قد حمّلت منّا أمانة بما عجزت عنه الصلاخمة البزل
فلايك باب الشرّ تحسن فتحه وباب الندى والخير أنت له قفل
وقد نلت سلطانا عظيما فلا يكن لغيرك جمّات الندى ولك البخل
و أنت امرؤ حلو اللسان بليغه فما باله عند الزيادة لا يحلو
وقبلك قد كانوا علينا أئمّة يهمّهم تقويمنا وهم عصل

(57) لقد اعتبر عمر بن الخطاب رسالة أبي المختار الشعرية فما كان منه الا أن قاسم ـ هؤلاء الذين ذكرهم أبو المختار شطر أموالهم حتى أخذ نعلا وترك نعلا. (البلاذري. فتوح البلدان. 377).

(58) الأصبهاني . الأغاني. 16 : 37.

إذا نصبوا للقول قالوا فأحسنوا ... ولكنّ حسن القول خالفه الفعل
يذمّون دنياهم وهم يرضعونها ... أفاويق حتّى ما يدرّ لهم ثعل
فيا معشر الأنصار إنّي أخوكمُ ... وإنّي لمعروف أبي منكمُ أهل
ومن أجل إيواء النبيّ ونصره ... يحبّكم قلبي وغيركمُ الأصل [59]

ففي هذه المقطوعة دعوة إلى عدم حبس تلك الزيادة الجماعية في الأعطية ودعوة إلى مراعاة تقوى الله وإجراء لما أتى به القرآن، هذا الكتاب الذي كان النعمان بن بشير إذا خطب على المنبر أكثر قراءته [60]، وفي هذه الأبيات تذكير بالأمانة والتقرّب لمعشر الأنصار وبيان منزلته منهم ومكانتهم في قلبه وأياديهم على الرسول باعتبارهم هم الذين آووا ونصروا.

يقول يوسف خليف في معرض تعليقه على مضمون الأبيات السابقة: «والحديث هنا يتراوح بين الشدّة واللين،انه حديث الرجل الغاضب المغيظ الذي يحاول جاهدا أن يكبت غيظه ويصبّ ماء باردا عليه، ولكن محاولته لا تجعله ضعيفا خائرا، إنه يحتج على هذا الوالي الذي حرمه وحرم أهل مدينته تلك الزيادة التي يستحقّونها، وهو يوشك أن ينفجر وأن يصبّ جام غضبه عليه، ولكنه يتذكّر أن هذا الوالي صحابي جليل، إنه من أولئك الأنصار الذين آووا النبي ونصروه فاستحقّوا حبّ المسلمين وتقديرهم، وهو لهذا يذكّر بكتاب الله الذي يتلوه وبالأمانة التي حملها وعليه أن يرعاها كما أمره الله ورسوله، ولكنّ لهجته تشتدّ وتعنف حين يتذكّر أنه أغلق دونهم باب الخير وفتح لهم باب الشرّ وأن الله قد أعطاه سلطانا عظيما، ولكنه قصّر في القيام بحقّه وأن حلاوة لسانه التي عرف بها تنقلب إلى مرارة كلّما تحدّثوا إليه عن هذه الزيادة، وهو يعجب من هذه المفارقات التي يلاحظها على تصرفاته ولا يجد ما يحذّره به إلا أن يذكّره بمن سبقه من الولاة الذين تولّوا أمرهم فكانوا مثلا سيئة لنفاق الشخصية وتلوّنها لعلّه يتدارك أمر نفسه فلا يكون صورة منهم، إنهم أرادوا تقويمهم مع أنهم هم أنفسهم كانوا معوجّين، وكانوا يحسنون

(59) الأصبهاني ،الأغاني، 16 : 39 - 38.
(60) الأصبهاني، الأغاني، 16 ، 37.

القول ولكنهم يسيئون الفعل وكانوا يدّعون القناعة مع أنهم أبعد الناس عنها. لقد امتصوا خيرات دنياهم حتى آخر قطرة منها ولم يتركوا لهم شيئا سوى الجدب والجفاف. ثم يعود إلى نفسه في النهاية هدوؤها فيتحدث إلى الأنصارحديثا ليّنا رفيقا يختم به أبياته» [61].

ذلك بعض ما اتّصل بالمعاني الواردة في المقطوعة. أمّا الصفة التي تكلّم بها الشاعرفلا تختلف عن الصفة التي انتحلها أبو الأسود الدؤلي [62] أو أبو المختار يزيد بن قيس بن يزيد بن الصعق من قبله [63]. فلئن تحدّث الشاعر في عدد قليل من الأبيات [64] بضمير المتكلّم المفرد فإنّه نطق في عدد من الأبيات أكثر [65] بضميرالمتكلّم الجمع أداء لمهمّة جماعية وحملا لرسالة غير شخصية. وفي هذا الباب يتطابق اهتمام الشاعر باهتمام المجموعة ويلتحم مشغله بمشاغل أهل الكوفة فيتمثّل بعض همومهم ولا يتوانى في تجريد لسانه الصارم ذبّا عن مصالحهم. ويحصل أحيانا أن يتنوّع الأسلوب حتى لدى الشاعر الواحد. فهذا ابن همّام يعمد الى الهجاء يستمدّ منه مادّته لا لشنء أوتشويه بل للتعبير عن خيبة أمله في من ولي الكوفة ووعد أهلها بالعدل النموذجي قائلا : «لأنسينّكم سيرة عمر بن الخطاب» [66]. يقول الشاعر في انتظاره المتواصل وخيبة أمله الحادثة | البسيط | :

ما زلت أرجو أبا حفص وسيرته   حتى نكحت بأرزاق المساكين [67]

وماهي إلاّ أن يعلن هذه الواقعة ويستقلّها مركبا ليهجو عامر بن مسعود فيقول متابعا | البسيط | :

---

(61) يوسف خليف .حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة 494 - 495.

(62) الجاحظ. البيان والتبيين. 1 : 196.

(63) البلاذري. فتوح البلدان . 377.

(64) يلاحظ في البيتين التاسع والعاشر. وقد تردد الحديث بضمير المتكلم المفرد ثلاث مرات.

(65) يلاحظ ذلك في ثلاث أبيات حيث تردد الحديث بصيغة المتكلم الجمع خمس مرات.

(66) البلاذري. أنساب الأشراف. 5 : 190.

(67) البلاذري. أنساب الأشراف. 5 : 190.

أنكحتمُ يا بني نصر فتاتكمُ   وجها يشين وجوه الربرب العين
أنكحتمُ لا فتى دنيا يعاش به   ولا شجاعا اذا شقّت عصا الدين(68)

ثم لايلبث أن يتّجه الى عبد الله بن الزبير يخاطبه بصفته أمير المؤمنين فيبيّن عيوب من ولاّه بصفته شبقا بخيلا يمدّ يده إلى أموال المسلمين لا يوقفه رضا ولا تقدعه قناعة، يقول ابن همّام مواصلا | البسيط | :

يا ابن الزبير لقد ولّيته شبقا   كزّ اليدين بخيلا غير عنّين
لا يستطف له مال فيتركه   ولا يقول لما يعطاه يكفيني (69)

وربما جاءت المقطوعة خالية من الذمّ مجرّدة من الهجاء فكانت شكاة خالصة مما عداها، دعامتها قائمة وحجّتها بالغة، فهذا مصعب بن الزبير عامل البصرة لأخيه عبد الله يتزوّج سكينة بنت الحسين على ألف ألف (70) فكتب عبد الله بن همّام السلولي الى عبد الله بن الزبير يشكوه أخاه مصعبا | الكامل | :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة   من ناصح لك لا يريد خداعا
بَضع الفتاة بألف ألف كامل   وتبيت سادات الجنود جياعا
لو لأبي حفص أقول مقالتي   وأبثّ ما أبثثكم لا رتاعا (71)

يقول يوسف خليف - و هو يعلّق على الأبيات الثلاثة المتقدمة - : «والأبيات نصيحة عنيفة، بل هي شكوى صارخة من هذا العبث بأموال الدولة، وأيّ عبث أشدّ من أن يدفع الوالي ألف ألف مهرا لزوجته ويترك جنوده جياعا لا يدفع لهم أجورهم ؟ إنه عبث يهدّد سلامة الدولة تهديدا خطيرا لأنه سيثير عليها جيشها الذي يحميها، ثم هو عبث ينكره الدين الذي لا يعرف هذا التغالي المسرف في المهور ويرتاع له فقهاء المسلمين

(68) البلاذري، أنساب الأشراف، 5 : 190.
(69) البلاذري، أنساب الأشراف، 5 : 190.
(70) الأصبهاني، الأغاني ، 16 : 16.
(71) الأصبهاني، الأغاني، 16 : 164.

لو يبلغهم أمره»[72] وفعلا، فإن المفارقة تظهر بيّنة صارخة بين الإسراف والتبذير من ناحية وما يلاقيه رؤساء الجنود من ناحية أخرى ، كما تبدو المفارقة قائمة بين ما يأتيه مصعب بن الزبير وما كان يسير عليه عمر بن الخطاب[73] من عدل وحزم ومراعاة لأحوال الرعية. على أن ما يلفت الانتباه هو رسالة النصح التي يوجهها الشاعر الى المسؤول الأوّل عن شؤون المسلمين، فهي عبارة عن أمحوضة مجرّدة من أية مجاملة أو مبالغة، فلا هو يمدح شاكرا مؤمّلا ولا هو يهجو شاتما مشوّها، وهنا يتّضح الالتزام بقضية من قضايا الجماعة، فالشاعر - اذ يقول مقالته ويبثّ شكواه - لا يطلب منفعة شخصية ولا ينشد امتيازا فرديا بل يتصدّى للسرف والتبذير ويذكّر بالقواعد المعروفة والأصول المألوفة ويستند في ذلك إلى أحد الأعلام البارزين باعتباره مرجعا من المراجع الدينية ورمزا من الرموز التاريخية.

ولعلّ أوفى ما وصل الينا في هذا الباب ما أنشأه عبد الله بن همّام السلولي في والي الكوفة عامر بن مسعود الملقب بـ«دحروجة الجعل» لقصره. هذا الوالي الذي ولّى عمالا فأساؤوا السيرة ومالوا إلى الخيانة[74]. قال ابن همّام مناديا عبد الله بن الزبير | البسيط | :

يا ابن الزبير أمير المؤمنين ألم	يبلغك ما فعل العمّال بالعمل
باعوا التجار طعام الأرض واقتسموا	صلب الخراج شحاحا قسمة النفل
وفيك طالب حقّ ذو مِرانية	مهما يقل لك شيخ كاذب يقل
اشدد يديك بزيد إن ظفرت به	واشف الأرامل من دحروجة الجعل
إنّا منينا بضبّ من بني خلف	يرى الخيانة شرب الماء بالعسل
خذ العصيفير فانتف ريش ناهضه	حتّى ينوء بشرّ بعد مقتبل

(72) يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني للهجرة، 495.

(73) يبدو أن يوسف خليف ذهب الى أن المقصود هو «فقهاء المسلمين» عامة، والأرجح أن المقصود «بأبي حفص» هو عمر بن الخطاب، فتلك كنيته (الجاحظ، البيان والتبيين 1 : 147، 3 : 364) هذا بالاضافة الى أن الشاعر قد استعمل في موطن آخر ثاني الخلفاء الراشدين بصفته مرجعا مثاليا من حيث السيرة (البلاذري، أنساب الأشراف، 5 : 190).

(74) البلاذري، أنساب الأشراف، 5 : 190.

وما أمانـــة عتّـــاب بسالمـــة لا غمز فيها ولكن جمة السبـــل
وقيس كندة قد طالـــت إمارتـــه بسرّة الأرض بين السهـــل والجبـــل
وخـذ حجيـرا فأتبعـه محاسبـة ومن عذرت فلا تعذر بني قُفُـل
ما رابنـــي منهـمْ إلاّ ارتفاعهـمُ إلى الخبيص من الصحناة والبصـل
ومـا غـــلام على أرض مسالمـــة كمن غـزا دستبيء غير مجتعـل
يجبى إليه خـراج الأرض متّكئـا مستهزئـا بغنـاء القينـــة الفضـل
والوالبيّ الـذي مهـــران أمّـــره فزال مهران مذمومـا ولـم يـزل
ودونك ابن أبي عُـشّ وصاحبَـه قبل السبيع فقد أجرى على مهل
لا تجعلنْ عند بيـت المـال مأكلـة لكل أزرق من همـــدان مكتحـل
والدارميّ يُطيـف البهرمـان بـه في شارب بُدّلت من رَيْعة الابـل
ومنقذٌ بن طريف من بني أسـد أنبتت عاملهـــم قد راح ذا ثقـل
ومـا أخيبـــس جعفـيّ بمانعـــه من المتـــاع قيـام الليـل بالطّـوَل
وآخـران مـــن العمّـــال عندهمـا بعض المنالـــة إن ترْفَـقْ بها تنـل
محمّد بن عمير والـذي كذَبـت بكر عليه غداة الـروع والوهـل
ومـا فـرات وقيـل امـــرؤ ورع إن نال شيئا بذاك الخائف الوجل
والحارثيّ سيرضـى أن تقاسمـه اذا تجـاوزتَ عــن أعمالــه الأول
وادع الأقـارع فاقرعهم بداهيـــة واجعل خيانة مسعود على جمل
كانوا أتونـا رجالا لاركاب لهـم فأصبحوا اليوم أهل الخيل والإبل
لن يُعتبـوك ولمّـــا يعـــل هامَهُـمُ ضربُ السياط وشدٌّ بعدُ في الحُجُـل
إنّ السيـاط إذا عضّت غواربهم أبدوا ذخائـر من مال ومن حلل(75)

وهذه الأبيات تناولها يوسف خليف فعلّق عليها بقوله : «ولعلّ أطرف قصيدة وصلت إلينا من شعره في هذا الجانب الاقتصادي تلك اللامية الطويلة التي بعث بها الى عبد الله بن الزبير يشكو فيها عمّاله وأصحاب الخراج والصدقات في المنطقة الشرقية من دولته وهي في حقيقة أمرها «صحيفة سوداء» يسجل فيها أسماء أولئك الولاة والعمّال الذين خانوا الأمانة التي حملوها ويذكرهم لولي الأمر الشرعي واحدا واحدا مبيّنا له وجوه شكواه منهم وما ينكره عليهم من عبث بأموال الدولة وإنفاق على

(75) البلاذري، أنساب الأشراف، 5 : 190 - 194.

مصالحهم الشخصية دون نظر إلى مصلحة الدولة التي عهدت اليهم بأمرها. فهم يستولون على «تموين الشعب» ثم يبيعونه للتجّار ويحرمون الشعب منه، وهم يستولون على مال الخراج ليقتسموه في ما بينهم كأنه غنيمة لهم، وهم لا ينفقون هذا المال المغتصب في وجوه الخير والبرّ وإنّما ينفقونه على ملذاتهم ولهوهم، انهم ينفقونه على القيان والمغنيات المتبذلات، واذا كان بعضهم يظهر الورع والتقوى ويقوم الليل متهجّدا قارئا فإنّ ذلك لم يمنعه من اغتصاب أموال الناس والاستمتاع بها دون خشية من الله أو خوف من الخليفة، وقد ظهرت آثار ذلك كلّه عليهم وبدت مظاهر النعمة الطارئة والثراء الفاحش، لقد جاؤوا إلى ولاياتهم وأعمالهم فقراء، ولكنّهم أصبحوا اليوم مترفين يأكلون من الطعام أطيبه أرباب خيل وإبل بعد أن كانوا رجالا لا ركاب لهم، إنّهم جميعا خائنون يغتصبون حقوق الناس ويأكلون أموال اليتامى والأرامل ظلما وعدوانا ويجعلون بيوت المال مأكل لهم حتى ساءت الحالة الاقتصادية وأضحت تتطلّب علاجا حازما سريعا وتدخّلا من الخليفة نفسه لينقذ شعبه من براثن هؤلاء الجشعين الخائنين العابثين بأموال الدولة وحقوق الشعب، ولا علاج لهذه الحالة السيئة سوى محاسبتهم وضربهم بالسياط ووضع القيود في أيديهم حتى يعترفوا بما ارتكبوه من جرم في حق الشعب ويظهروا ما اغتصبوه من أمواله ثم عزلهم بعد ذلك» (76) هذه إذن مجمل المعاني التي تضمنتها تلك الأبيات، غير أن شيئا منها يستدعي بعض التوضيح والتدقيق، فقد فضّل صاحب «حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني» هذه الأبيات في الطرافة ولو أنه فعل ذلك بشيء من الاحتياط والتحفّظ (77)، فإذا كان المقصود بالطريف الغريب الطيّب لأنه جديد مستحدث (78)، فالطريف في هذا الباب يتمثّل في الأبيات التي أنشأها أبو المختار يزيد بن قيس بن يزيد بن الصعق (79) وهي سابقة تاريخيا بما

(76) يوسف خليف خليف، حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني، 496 - 495.

(77) يوسف خليف خليف، حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني، 495.

(78) لسان العرب مادة طرف.

(79) البلاذري، أنساب الأشراف، 377.

أنها قيلت في عهد عمر بن الخطاب[80]، والأبيات اللاحقة - في مجملها - منسوجة على منوال الأبيات السابقة باعتبارها وحدة موضوعية وبنيوية قائمة بذاتها، وهي مقطوعة شعرية ومضمونها شكوى لها منطقها الداخلي المحدّد الذي يتدرّج من التقديم الى العرض ومن الطلب إلى التعليل.

ومن جهة أخرى يمكن اعتبار ما قاله عبد الله بن همّام السلولي قصيدة إذا اقتصر المرء على المعنى اللغوي وحصر النظر في الجانب الكمي [81]. أما إذا روعي المعنى الاصطلاحي فلا يمكن اعتبارها قصيدة لا سيما إذا استحضر المرء ما ذكره بعض أهل الأدب في مؤلف «الشعر والشعراء» [82] وأحرى بهذه الأبيات أن تكون مقطوعة مطوّلة ذات قسم واحد لا قصيدة متعدّدة الأقسام [83]، على أن ما يثير الاهتمام هو أن

(80) ابن حزم الأندلسي ،جمهرة أنساب العرب، 286 _ 287، ويعزو صاحب «الشعروالمال» بروز مثل هذا المعنى في الشعرالى أمرين أحدهما سياسي مرتبط بشخصية ثاني الخلفاء الراشدين. يقول المؤلف في ذلك : «ويبدو أن تشدد عمر في سياسة المال وحرصه على سلامة سيرها وعدله فيها وسلوك المحاسبة الذي سلكه تجاه المسؤولين الماليين في عهده هو الذي فتح أفواه الشعراء وشجعهم على التنديد بمظاهر الاختلاس والإثراء غير الشرعي التي اتسم بها سلوك الكثرين من هؤلاء ».(مبروك المناعي، الشعروالمال، 483)
أما ثاني الأمرين فهيكلي متصل وثيق الإتصال بتطور أجهزة الدولة الاقتصادية منها خاصة. يقول المؤلف في هذا الصدد : «على أن هذا الموقف انما اتضح بعد الإسلام بالخصوص خلال القرن الأول وما تلاه وبدأ يظهر ظهوره الواضح بصورة موازية لتشكل النواة الأولى للنظام المالي في الدولة العربية منذ عهد عمر وعثمان ثم عهود الخلفاء في ما بعد واتسع بمعنى التظلم من سوء التصرف في المال العام ومن الحيف في توزيع الغنائم» (مبروك المناعي، الشعر والمال، 482).

(81) لسان العرب، مادة قصد.

(82) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1 : 20 - 21.

(83) ابن قتيبة، الشعرو الشعراء، 1 : 21.

هذه المقطوعة وافية الطول [84] مليئة بأسماء الأعلام [85] من ولاة وعمّال وقائمين على جباية الصدقات. وممّا يثير الاهتمام أيضا هذا الاحتقان العاطفي الذي اصطبغت به الشكوى ويبرز من خلال طغيان هذا الأسلوب الإنشائي السائد بندائة الاستغاثي [86] واستفهامه الدالّ على الاستغراب[87] وطلبه التحريضي المردّد [88] وما يحمله كلّ ذلك من شحنات عاطفية تعتمل وتجيش ثم تندفع متوثبة متدفقة. هذا بالإضافة إلى دعوات الشاعر التحضيضية المبثوثة بطرق غير مباشرة [89] يسندها سجّلّ حافل بمعاني الجزاء الاقتصاصي والحقّ الثأري اللذين يصلان إلى حدود الانتقام الشافي للصدور، محمل كل ذلك أفعال بأعيانها معبّرة كالدعوة والشدّ والأخذ والنتف والقرع والمحاسبة والمقاسمة والمعاقبة ضربا بالسياط ومشيا على القيود. وعلى هذا النحو آلفت المقطوعة السابقة في آن واحد بين المحافظة والتجاوز، فقد التزم صاحبها إجمالا بالنموذج الهيكلي الذي نحته من قبل

(84) يبلغ عدد أبياتها سبعة وعشرين بيتا.

(85) الشيخ هو مرثد بن سراحيل كان أمينا على التجار في بيع الطعام، وزيد هو حارثة وهومولى عتاب بن ورقاء، وعامر بن مسعودبن أمية بن خلف الجمحي وكان على الكوفة، وعبد الله بن أبي عصيفر الثقفي وكان على المدائن، وعتاب بن ورقاء بن الحرث بن عمرو ابو ورقاء الرياحي اليربوعي التميمي وكان على أصبهان، وقيس بن يزيد بن عمرو بن شراحيل بن النعمان بن المنذر بن مالك بن الحارث الكندي، وحجير بن حجار بن الحر ويقال حجير بن جميل الجمحي كان على الزوابي أو الرذانات، وبنو قفل بن تيم الله بن ثعلبة منهم قوم على صدقات بكر بن وائل، ومهران مولى زياد، وسعيد ابن حرملة بن الكاهل الوالبي ويقال هو أبو هياج عمرو بن مالك الوالبي، وابن أبي عشّ وكان على الدينور وصاحبه عبد الرحمان بن سعيد بن قيس الهمذاني والدارمي لبيد بن عطارد ويقال قيس بن مسعودبن عطارد ومنقذ بن طريف بن عمرو بن قمين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد ونعيم بن دجاجة وكان على أسفل الفرات، وزحر بن قيس ويقال محمد بن أبي سبرة وكان على جوخى، ومحمد بن عمير بن عطارد ويزيد رويم وفرات بن زحر، والسري بن وقاس الحارثي وكان على نهاوند، ومسعود وهو احد بني أسد (انظر رفيق بن حمودة، شعر عبد الله بن همّام السلولي، 81 - 82).

(86) يظهر ذلك في البيت الأول.

(87) يتجلى ذلك في البيت الأول أيضا.

(88) تردد في المقطوعة اثني عشرة مرة.

(89) يبدو ذلك في كثير من المواطن نذكر منها خاصة الأبيات 9 و14 و20 و23 و26 و27، والأسلوب في هذه المواضع ظاهره إخبار وباطنه دعوة صورته تقرير وجوهره طلب.

أبو المختار على غير مثال، غير أن كثرة الأبيات ووفرة المعاني ونبض العاطفة وصدق اللهجة جعلت المقطوعة تبلغ درجة من التشبّع ومرحلة من التطوّر غير مألوفين،ولا غرو في ذلك لا سيما اذا اعتبر الدارس أن هذا الشاعرجعل ربع ديوانه [90] محملا لذلك المشغل الجماعي وتعبيرا من تعبيرات الشكوى، ولعلّه يمكن للباحث - بالنظر الى ذينك المعيارين الكمّي والنوعيّ - أن يعتبر عبد الله بن همّام السلولي أبرز علم طرق فنّ الشكوى على هذا النحو من خلال المقطوعات الشعرية.

على أن المقطوعة الشعرية لم تكن الصياغة الهيكلية الوحيدة التي اتخذتها شكوى السعاة والولاة ومن إليهم من الأتباع المعاونين، فقد انبثقت الشكوى كذلك من خلال شكل فني آخر هو القصيدة إذ خرجت في هذه الصورة في فترة زمنية لاحقة [91]، وكان الذي ابتدع ذلك الفن في مبناه الجديد - عمرو بن أحمر الباهلي [92] تناول ذلك في رائيته المشهورة [93]، وهي قصيدة استهلّها بالنسيب يعقبه وصف الرحلة والراحلة [94] وأنهاها بالشكوى وما إليها [95] ، وهذا أمر جدير بالاعتبار لأن الشكوى جاءت صلب بنية القصيدة الثلاثية، فكانت - فضلا

(90) يبلغ عدد الأبيات المنسوبة الى ابن همّام ثلاثة عشرومائتي بيت،ويبلغ عدد الأبيات التي تناولت فن الشكوى اربعة وخمسين بيتا وبذلك تصل نسبتها من مجمل ما اشتمل عليه الديوان الى 25,35 بالمائة غير أن عدد الأبيات التي يشك في نسبتها الى هذا الشاعريبلغ خمسة وعشرين، مما يجعل عدد الأبيات التي لا يشك في نسبتها الى ابن همّام ثمانية وثمانين ومائة بيت، وفي هذه الحالة يصبح عدد الأبيات المتناولة لفن الشكوى خمسين بيتا،مما يجعل نسبتها تصل إلى 26,59 بالمائة. ويبلغ عدد المقطوعات سبع مقطوعات من أصل سبع وثلاثين مقطوعة أو ستا من أصل خمس وثلاثين عندما يعتبر الباحث ما لا يشك في نسبته الى الشاعر.

(91) كان ذلك في عهد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان بن عفان (الأصبهاني، الأغاني، 8 : 242).

(92) الأصبهاني، الأغاني، 8 : 242.

(93) ابو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 301 - 305.

(94) خصص الشاعر لغرضي النسيب والرحلة اثنين وعشرين بيتا فمثّل الحيز الذي احتله الغرضان نسبة 42,30 بالمائة من مجمل القصيدة.

(95) خصص الشاعر لهذا الجزء ثلاثين بيتا من أصل اثنين وخمسين بيتا فكانت نسبته مقدرة بـ 52,069 بالمائة من مجمل القصيدة.

عن الحيّز النصّي الواسع الذي احتلته - بمثابة الغرض الأصل التي تنتهي إليه القصيدة بصفته غاية الأغراض وخاتمها، وهو ما يمثل في ذاته تطوّرا نوعيا مشهودا لم تألفه القصائد من قبل على حدّ ما وصل الينا. فالشاعر يفتتح غرضه المستحدث بالاتّجاه إلى مطيّته يخاطبها بقوله [البسيط] :

حتّي فليس إلى عثمان مرتجع   إلاّ العداء وإلاّ مكنع ضرر
وانجي فإنّي أخال الناس في نكص   وأن يحيى غياث الناس والعَصَر(96)

بذلك حدّد وجهته المطلوبة ومرجعه المنشود ومعاذه الحاضن وملاذه الآمن معلنا طاعته وطاعة قومه لأمر الآمر ورضاهم بحكمه الصادر إلى جانب تذكيره بأيّام قومه وأياديهم وأفضالهم .يقول ابن أحمر في ذلك مستغيثا طالبا أكثر من مرّة وبطريقة غير مباشرة القيام بحاجته [البسيط] :

يا يحيى يا ابن إمام الناس أهلكنا   ضرب الجلود وعسر المال والحسر
إن قمت يا ابن أبي العاصي بحاجتنا   فما لحاجتنا ورد ولا صدر
ما ترض نرض وإن كلّفتنا شططا   وما كرهت فكره عندنا قذَر
نحن الذين إذا ما شئت أسمعنا   داع فجئنا لأيّ الأمر نأتمر
إنّي أعوذ بما عاذ النبي به   وبالخليفة أن لاتقبل العذَر
من مترفيكم وأصحاب لنا معهم   لا يعدلون ولا نأبى فننتصر
فإن تقرّ علينا جور مظلمة   لم تبن بيتا على أمثالها مضر
لا تنس يوم أبي الدرداء مشهدنا   وقبل ذلك أيّام لنا أخر(97)

وكما هو ظاهر تتخلّل كلّ ذلك معاني الشكوى من البعد والإعياء والشدّة والضيق وقلّة المال وسوء الحال إلى جانب مظاهر الجور وقلّة العدل. وما هي إلاّ أن يشفع كل ذلك بمعان مدحية فيقول في رياسة المدوحين وسياستهم وتقدّمهم في الحرب وتفوّقهم في الكرم وتسنّمهم ذرى الشرف [البسيط] :

(96) ابو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 303.
(97) ابو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 303 - 304.

من يمس من آل يحيي يمس مغتبطا   في عصمة الأمر ما لم يغلب القدر
ورّادة يوم نعت المـوت رايتهـم   حتّى يفيء إليها النّصر والظّفـر
من أهـل بيـت هـم لله خالصـة   قد صعدوا بزمام الأمر وانحدروا
كأنه صبح يسـري القـوم ليلهـمُ   مـاض من الهندوانيـات منسـدر
يعلو معدّا ويستسقى الغمـام بـه   بدر تضاءل فيه الشمس والقمـر[98]

وعلى أثر ذلك تتمحّض الشكوى تمحّضا فلا يخالطها - الى آخر القصيدة - من المعاني سوى معناها بما فيه من كشف لظلم السعاة وسوء سيرتهم وفضح لمظاهر الجور، فجامعو الزكاة لا يلتزمون بقواعدها الشرعية بل يعمدون إلى الشدّة ويقصدون إلى العسف فيعنّفون الرجال بالسياط الأصبحية وقد أحكم فتلها ويعاملونهم معاملة الأغراب الخارجين عن الملّة ويخفون عن أولى الأمر حقائق ما جبوا بدافع من الجشع حتى لكأنهم لفرط مكرهم وكثرة نهمهم حاقدون على جميع الناس رجالا كانوا أو نساء أوشيبا، هؤلاء الناس الذين شتّتهم الظلم ففقدوا الاستقرار والطمأنينة وكرهوا أوطانهم وأصبحت ديارهم مؤذنة بالخراب،يقول عمرو بن أحمر [البسيط] :

هل في الثماني من التسعين مظلمة   وربها لكتـاب اللـه مستطّـر
يكسونهم أصبحيّـات محدرجـة   إنّ الشيوخ إذا ما أوجعوا ضجـروا
حتى يطيبوا لهم نفسا علانيـة   عن القلاص التي من دونها مكـروا
لسنا بأجسـاد عـاد في طبائعنا   لا نألم الشـرّ حتّـى يألـم الحجـر
ولا نصارى علينا جزيـة نسـكٌ   ولا يهـودًا طغامـا دينُهـم هـدر
إن نحـن إلاّ أنـاس أهـل سائمـة   ما إن لنا دونها حرث ولا غُـرر
ملّـوا البـلاد وملّتهـم وأحزقهـم   ظلم السعاة وبـاد المـاء والشجـر
إن لا تُداركْهُـمُ تصبـحْ ديارُهـمُ   قفرا تصيح على أرجائها الحُمُـر
أدرك نساء وشيبا لا قـرار لهـم   إن لم يكن لك فيما قد لقوا غيـر
إنّ العياب التي يخفون مشرجةٌ   فيها البيان ويُلْـوَى دونـك الخبـرُ
فابعث إليهم فحاسبهـم محاسبـة   لا تُخْفَ عينٌ على عين ولا أثـرُ

(98) ابو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 304.

ولا تقولــنّ زهــوا ما تخبّرنـــي   لم يترك الشيب لي زهـوا ولا العور
سائلهمُ حيث يبدي الله عورتَهم   هل في قلوبهم من خوفنـا وَحَـر(99)

ومن البـيّن أنّ مـا يشتـرك فيه هذا الغـرض وأشعـار أخـرى كـالتي وردت في مقطوعات يزيد بن قيس أو عبد الله بن همّام أو غيرهما هو الدعـوة المتكرّرة الموجّهـة إلى وليّ الأمـر حـتّى يتـدخّل التـدخّل الحـازم ويرفع المظـالم وينقـذ الناس من جـور السعـاة وحتّى تعود الأوضـاع إلى نصابها الطبيعي المسلّم به شرعـا والمتـواضع عليه اجتـماعا وذلك بتقصّي المسـؤول الشـرعـيّ للحقـائق على سبيل المتابعة والمراقبة بمساءلة أعوانه ومحاسبتهم وما يرجى تبعـا لذلك من إزالة لبقـايا العسف ومحو لآثار الحيف . لكن ما لم يؤلف من قبل هو أن تسبق الشكوى وتصحب بشيء من المدح ولو أنّ المدح يتسق مع الغرض الرئيس باعتبار الأوّل عنصرا من العناصر المسـاعدة موضوعيا على استجلاب الشفقة واستدرار العطف، ولعلّ هذه المؤالفة بين ذلك النوع من المدح وهذه الشكوى المخصوصة تمثّل مظهرا من مظاهر التطوّر ربما ازداد في ما بعد اتّضاحا وبروزا.

على أن مـا يظهـر طريفـا أيضا هو أن الشـاعـر - في دفـاعـه عن المجموعة والتزامه بقضيتها - يبدو متمثّلا - كأوضح مـا يكون التمثّل - لقواعد التعـامل المرجوّة التي على مختلف الأطراف أن تلزمها انتهاجا لها وتقيّدا بها. من ذلك أنّنا نلفي ابن أحـمـر يذكّر ببعض القوانين الشرعية المتّصلة بقضيّة الحال كالزكاة وما تقتضيه من حسـابات مضبوطة ونسب محـدّدة، كما يذكّر بواقع المجمـوعة العقدي ووضعها الاقتصادي وحالتها الاجتـمـاعية ومـا يتطلّبـه كلّ ذلك من أسس للتعـامل المنصف المقـام على التـوازن الإيجـابي بين الطرفين الأسـاسـيين : السلطة الإدارية من ناحـيـة والمجتمع الأهلي من نـاحية ثانية بما لا يخلّ بالنظام ولا يهدّد العمـران ولا ينال من طبيعة الاجتماع الإنسـانـي مثلما وقعتٍ الإشارة إلى ذلك في آخر القصيدة في إطار من الشكوى العامّة من الأسقام وتقدّم السن.

(99) أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، 304 - 305.

ولئن كان ابن أحمر سابقا زمنيا في تناول هذا الغرض في بنيته الجديدة فإن راعي بني نمير لحق به فخاض في الذي خاض فيه سابقه وطرق الغرض المشترك في قصيدتين مطولتين (100) واحتصّ له من ديوانه ما يقارب الثمن (101).

ورغم أن القصيدتين تطرّقتا الى الموضوع ذاته،ورغم أنه وقع التقديم لهما بالطريقة نفسها (102) فقد رأينا من الأنسب أن نتناول كلّ واحدة منهما على حدة نظرا الى أن ظرفيهما اختلفا بعض الاختلاف فحوّرت الصياغة وفقا لذلك بعض التحوير.

أما القصيدة الأولى فيستهلّها راعي الإبل استهلالا شاكيا وكأنه يعلن منذ البدء عنوانها ويحدّد متجهها ضبطا لمجمل معانيها. يقول الشاعر [الكامل] :

ما بال دفّك بالفراش مذيلا	أقذى بغينك أم أردت رحيلا
لّما رأت أرقي وطول تقلّبي	ذات العشاء وليلي الموصولا
قالت خليدة ما عراك ولم تكن	فبل الرّقاد عن الشّؤون سؤولا
أخليد إنّ أباك ضاف وساده	همان باتا جنبة ودخيلا
طرقا فتلك هما همي أقريهما	قلصا لواقح كالقسيّ وحول (103)

---

(100) نوري القيسي حمودي وهلال ناجي،شعر الراعي النميري،ا لقصيدة الأولى من ص46 الى 65 وتضم 92 بيتا، والقصيدة الثانية من ص 82 الى ص 91 وتضم 63 بيتا.

(101) يصل عدد الأبيات التي اشتمل عليها شعر الراعي 1298 بيتا، تناول الشاعر غرض الشكوى ضمن قصيدتين يبلغ مجمل أبياتهما 155 وهو ما يجعل نسبتها من الديوان تصل الى 11.94 بالمائة.

(102) جاء في تقديم القصيدة الأولى : «قال يمدح عبد الملك بن مروان ويشكو السعاة، (نوري حمودي القيسي وهلال الناجي، شعر الراعي النميري 46) وورد في تقديم القصيدة الثانية : «وقال الراعي يمدح عبد الملك بن مروان ويشكو السعاة ،(نوري حمودي القيسي وهلال الناجي، شعر الراعي النميري 82).

(103) نوري حمودي القيسي وهلال الناجي، شعر الراعي النميري، 46 - 47.

ولا يلبث أن يتخلص الى تصوير الرواحل ووصف الرحلة وما اليها فيفصّل القول ويطنب في ذلك [104] على عادته المألوفة. وما إن يفرغ من ذلك حتى ينطلق في رسالته الموجهة إلى أمير المؤمنين يحملها شكواه التي تنحو في أول الأمر منحى فرديا، غير أنها لا تلبث أن تنحو منحاها الجماعي [105].

ثم ان الشاعر يأخذ في مدح الخليفة وأبيه وقومه ويذكّر ببعض الوقائع التاريخية لكنه لا يطيل في ذلك [106].

ويعود الراعي النميري إلى ما يمكن إلحاقه بالشكوى عندما يأخذ في بيان التزامه بالشرعية السياسية ووفائه لبني أمية وتبرّئه من التهمتين الزبيرية من ناحية والخارجية من ناحية اخرى [107] وماهي إلاّ أن يرجع إلى مدح في غاية الاقتضاب لا يتجاوز بيتين اثنين[108]، وبعد ذلك يعود راعي الإبل إلى الشكوى ينشر فيها الحديث نشرا لا مزيد عليه [109].

وعلى هذا النحو يتّضح من العرض المتقدّم وما اشتملت عليه القصيدة من مفاصل أن المدح لا يتعدى في مجمله عشرة أبيات بينما تتجاوز الشكوى نصف القصيدة رغم طولها. أمّا إذا وقع الاعتماد على المعيار

---

(104) يشتمل هذا المقطع على 27 بيتا (نوري حمودي القيسي وهلال الناجي،شعر الراعي النميري، 46 - 53).

(105) يبلغ مجمل أبيات الشكوى في هذه المرحلة 21 بيتا (نوري حمودي القيسي وهلال الناجي، شعر الراعي النميري، 54 - 57).

(106) يحتوي هذا المقطع على 8 أبيات فقط (نوري حمودي القيسي وهلال الناجي،شعر الراعي النميري، 57 - 58).

(107) يضم هذا المقطع 8 أبيات أيضا (نوري حمودي القيسي وهلال الناجي،شعر الراعي النميري 58 - 60).

(108) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 60.

(109) امتدت الشكوى هذه المرة أيضا حتى وصلت الى 21 بيتا (نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 61 - 65).

النوعي فمنطق القصيدة من حيث صياغتها واتجاه معانيها غير مدحي(110) لأنها تنفتح بالشكوى استهلالا وتنغلق عليها اختتاما مما جعل المدح مطيّة أمتطيت والشكوى محجّة قصدت. يقول الشاعر [الكامل] :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة شكوى إليك مظلّة وعويلا
من نازح كثرت إليك همومه لو يستطيع إلى اللّقاء سبيلا
طال التّقلّب والزّمان ورابه كسل ويكره أن يكون كسولا
وعلا المشيب لذاته ومضت له حقب نقضن مريره المجدولا
فكأنّ أعظمه محاجنُ نبعة عوج قدُمن فقد أردن نحولا
كبقيّة الهندي أمسى جفنُه خلَقا ولم يك في العظام نكولا
تُغْلَى حديدتُه وتنكر لونه عين رأته في الشّباب صقيلا
ألف الهموم وسادَه وتجنّبتْ ريّانَ يصبح في المنام ثقيلا
وطوى الفؤادَ على قضاء صريمة حذّاءَ واتّخذ الزّماعَ خليلا (111)

على هذا النحو يبعث الراعي رسالته الشاكية، وهي _ كما يظهر لأوّل وهلة - صادرة عن ذاته الفردية بما هي بدن وفكر. فقد تقدّمت سنّه حتى نحل جسمه وشاب شعره وتغيّر لونه ووهت قواه وخبا نشاطه وقلّت حركته وتفاقم الأمر بنزوحه عن وطنه حتى ركبته الهموم واعترته الهواجس خاصّة وقد حمّل نفسه رسالة وقلّدها مهمّة وعزم على قضاء حاجة أسرّها في نفسه وصمّم على أن لا يهدأ له بال ولا يلوي على شيء حتى يحكمها ويفرغ منها . يقول الشاعر واصلا متابعا [الكامل] :

أوليّ أمر الله إنّ عشيرتي أمسى سَوامهمُ عزينَ فُلولا
قطعوا اليمامة يَطْرُدون كأنّهم قوم أصابوا ظالمين قتيلا
يَحْدُون حُدْباً مائلا أشرافُها في كلّ منزلة يَدَعْنَ رَعيلا

(110) لم تتجاوز أبيات المديح نسبة التسع وهي نسبة لا توافق التعديل المرجو بين أقسام القصيدة (ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 21) ذلك أن الشاعر صرف اهتمامه الى الرواحل يصورها والى الرحلة يصفها ثم وجه أوفر نصيب من قصيدته الى غرض الشكوى.
(111) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 54 - 55.

شهري ربيع ما تـذوق لبونهـم إلاّ حُمُوضا وَخمْـة ودَويـلا
حتّى إذا جُمِعَت تخيّـرَ طَرْقهَـا وثنا الرّعاءُ شكيرهـا المنحـولا
وأتوا نساءَهـمُ بِنيبٍ لـم تَـدَعْ سوءُ المحابس تحتهنّ فَصِيلا (112)

وهكذا تتّخذ الشكوى بعدا آخر اذ تصبح صادرة عن الذات الجماعية وهي عشيرة الشاعر، فقد أصبح القوم بدورهم نازحين تفرقت جماعاتهم تفرق الجناة المقترفين لأعظم الذنوب وتشتتت مواشيهم وهزلت ابلهم وأخذ السعاة فحولها وخيارها ولم يتركوا منها لأصحابها سوى الصغار المهازيل. وعند هذا الحد يرى الشاعر من المفيد أن يذكر بواقع قومه من جهة العرق ووضعهم من حيث الدين معتقدا ومعاملات فيقول مخاطبا ولي الأمر [الكامل] :

أوليّ أمر اللـه إنّـا معشـر حنفاء نسجد بُكـرة وأصيلا
عرب نـرى للـه في أموالنـا حـقّ الزكـاة منـزّلا تنزيـلا
قومٌ على الإسلام لـمّـا يمنعـوا ماعـونهـم ويضيّعـوا التّهليـلا
فادفع مظالـم عيّلـت أبناءنـا عنّـا وأنقـذْ شلْوَنـا المأكـولا
فنـرى عطيـة ذلك إن أعْطَيْتَـه من ربّنا فضلا ومنـك جزيـلا
أنـت الخليفـة حلمـه وفعالُـه وإذا أردتَ لظالـم تنكيـلا (113)

فقوم الراعي موحّدون مخلصون ملتزمون بتعاليم الإسلام يقيمون الصلاة ويأتون الزكاة ويؤدّون واجب الطاعة. ولا بدّ للواجبات من أن تقابلها حقوق تؤدّى إلى أصحابها كالحقّ في الحماية والعدل. لذلك نجد الشاعر يربط الربط الأليف بنيويا ومعنويا بين واجب الرّعية في التزام الشرعية وحقّها في أن ينقذها ولي الأمر ويدفع عنها المظالم.

وبعد مقطع فيه بعض المدح وتذكير ببعض الوقائع التاريخية وتأكيد الالتزام بالشرعية السياسية يعود الراعي النميري إلى السعاة يكشف أعمالهم ويفضح مخالفاتهم وعدم تطبيقهم - ولو جزئيا - للأوامر

(112) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 55 - 56.
(113) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 56 - 57.

الصادرة إليهم. ويسعى في تصوير ما يلاقيه أهله من ضيق وعنت وقساوة وجور فيقول [الكامل] :

إنّ السعاة عصوك حين بعثتَهم ... وأتوا دواهيَ لو علمت وَغُولا
إنّ الذين أمرتهم أن يعدلوا ... لم يفعلوا ممّا أمرت فتيلا
أخذوا المخاض من الفصيل غُلُبّة ... ظلما ويُكْتَبُ للأمير فصيلا
أخذوا العريف فقطّعوا حيزومَه ... بالأصبحيّة قائما مغلولا
حتّى إذا لم يتركوا لعظامه ... لحما ولا لفؤاده معقولا
نسيَ الأمانةَ من مخافة لُقَّح ... شُمْسٍ تَركن بضَبْعه مَجْزولا
كتب الدُّهَيمُ وما تجمّع حولها ... ظلما فجاء بعَدلهَا معدولا
وغدوا بصكّهم وأحدب أسْأرت ... منه السياط يراعةً إجفيلا
من عاملٍ منهم إذا غيَّبتَه ... غالا يريد خيانة وغُلولا
جَربِ الأمانة لو أحطتَ بفعله ... لتركت منه طابقا مفصولا
وأتاهمُ يحيى فشدَّ عليهمُ ... عَقْدا يراه المسلمون ثقيلا
كُتُبًا تركن غنيّنا ذا خُلَّة ... بعد الغنى وفقيرَنا مهزولا
فتركت قومي يَقسمون أمورَهم ... أإليك أم يتربّصون قليلا
أخذوا حمولته فأصبح قاعدا ... ما يستطيع عن الدّيار حويلا
يدعو أميرَ المؤمنين ودونَه ... خَرقٌ تجرُّ به الرّياح ذُيولا
كهُداهدٍ كَسَرَ الرُّماةُ جَنَاحَهُ ... يدعو بقارعة الطريق هديلا
وَقَعَ الرَّبيعُ وقد تقارب خطوُهُ ... ورأى بعقوته أزَلَّ نَسولا
متوضّحَ الأقراب فيه شُهْبَةٌ ... نَهِشَ اليدين تخالُهُ مشكولا
كدخان مرتجلٍ بأعلى تَلْعَة ... غَرثانَ ضرَّمَ عَرفَجًا مبلولا
ولئن سلمتُ لأدعونَّ لِطَعْنَة ... تَدَعُ الفرائضَ بالشَّريف قليلا
وأرى الّذي يَدَعِ المطامعَ للتُّقى ... منّا أتى خُلُقًا بِذاك جَميلا (114)

ويظهر من الأبيات المتقدمة أن السعاة عصوا الخليفة وخالفوا أمره وغالوا وأسرفوا وخانوا وظلموا حتى صار القوم إلى فقد بعد وجد وفقر بعد غنى وخوف بعد أمن وفرق بعد طمأنينة وقلق بعد تمكن واضطراب

(114) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 61 - 65.

بعد استقرار وعجز بعد قدرة وقيد بعد حرية وجبن بعد شجاعة وذل بعد عز وعسر بعد يسر. ثم إنّ الجباة لم يتوقّفوا عند هذا الحدّ بل انتهجوا الشدّة بدل اللين وتوخّوا القسوة عوض الرفق فأخضعوا الناس لألوان من العذاب المهين، فهذه السياط الأصبحية المصنوعة من قدّ ترتفع وتنحطّ على الأجسام التي غلّت قوائمها واحدودبت ظهورها ومزّقت جلودها وقطّعت حيازيمها وذهبت طوابق مفصولة وأعضاء مجزولة وأشلاء مأكولة وصار الناس بمثابة الطرائد ترمي والفرائس تفرى بمخالب وتنهش بأنياب سواء بالفعل أو بالقوة كما يظهر في صورة الهداهد المصاب الذي أيقن بالهلاك وقد رأى الذئب حلّ بساحته والحال أنه لا قدرة له على الطيران ولا حيله له للنجاة من المصير المحتوم.

وقد عدّد الشاعر الصور تعداده للوحات العذاب الشديد ومشاهد الألم المحزن يخاطب بها البصر والسمع على حدّ سواء فجعل لوحات العذاب ومشاهد الألم تنبعث منها مقاطع استغاثة مؤثّرة وأصوات استصراخ محزنة تتراوح بين النداء والدعاء والهديل والعويل وما توحي به هذه الأصوات وتلك المقاطع منفردة أو مجتمعة من ترديد أليم لأوضاع القوم التعيسة وتغنّ حزين بمصائرهم البائسة.

غير أنّ المعاني المتقدمة - على وجاهتها والصور المثارة على تأثيرها - لم تجد نفعا إزاء الاعتبارات السياسية التي تظل محددة خاصة لدى حاكم كعبد الملك بن مروان (*) إذلم يقبل ما أعلنه الشاعر من عزمه على

(*) كان عبد الملك بن مروان - في ما أثر من أقواله وعرف من سيرته - يعتبر متطلبات السياسة ومقتضيات الحكم محددة في أعماله ومعاملاته وردود أفعاله،وكان يقدمها تقديما كبيرا على غيرها من الاعتبارات الأدبية والمعنوية والإنسانية (الجاحظ، البيان والتبيين، 1 : 376، 390، الحيوان، 5 : 591 ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين 174).

الدعوة إلى ما يشبه المقاطعة الجبائيّة [115] وقال له: «وأين من الله والسلطان لا أمّ لك؟» [116].

ويمكن للباحث - بالنظر إلى ذلك - أن يقدّر أنّ هذا الأمر ربّما كان عاملا من العوامل التي دعت الراعي - بصورة أو بأخرى - الى أن يفكّر في صياغة قصيدته الثانية صياغة محوّرة بعض التحوير بما يناسب المقام ويصيب الغرض في آن واحد.

وقد استهلّ شاعر بني نمير قصيدته الثانية بالنسيب [117] تعقبه الرحلة وما إليها من الوصف وبعض الفخر [118]، ثم إنّ الشاعر يجري حوارا قصيرا بينه وبين ابنته خليدة [119] وما هي إلاّ أن يعلن شكواه إجمالا، وبعد ذلك يمهّد لتفصيل القول فيها بأبيات مدحية [120] يعود إلى أثرها إلى موضوع السعاة والأموال والزكاة وأحوال قومه وما يرجوه من الخليفة فيقول [البسيط] :

أَزرى بأموالنا قومٌ أَمرتهم ... بالعَدل فينا فَما أبقوا وما قَصَدوا
نُعطي الزَّكَاةَ فَمَا يَرضَى خَطيبُهُم ... حتّى نُضَاعِفَ أضعَافًا لَهَا عَدَدُ

(115) وذلك حين قال الراعي في أواخر قصيدته :

ولئن سلمت لأدعون لظعنة ... تدع الفرائض بالشريف قليلا

(نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 64). وقد أراد الشاعر «تهديد عبد الملك بأنه إن سلم سيدعو قومه الى الارتحال عن ديارهم بالشريف حتى لا تبقى فيها نعم تكون لها زكاة تقبض تخلصا من ظلم السعاة» (نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 65).

(116) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين، 175.

(117) يشتمل غرض النسيب على 16 بيتا (نوري حمودي القيسي وهلال ناجي ،شعر الراعي النميري، 82 - 84).

(118) اشتملت الرحلة وما اليهاعلى 28 بيتا (نوي حمودي القيسي وهلال ناجي ،شعر الراعي النميري، 84 - 88).

(119) يخصص الشاعر لذلك 3 أبيات (نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 89).

(120) يشتمل المدح على 8 أبيات (نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 89 - 90.

أمَّا الفَقيرُ الّذي كانَت حلُوبَتُه وَفق العيَال فَلَم يَترك لَه سَبَدُ
وَاختلَّ ذُو المَال والمُثرونَ قد بَقيَت عَلَى التّلاتَل من أموالهم عُقَدُ
فَإن رَفعت بهم رَأسًا نَعّشتَهُم وإن لَقُوا مثلَهَا في قابل فَسَدُوا [121]

هكذا ذهب الجباة بأموال القوم فأجحفوا ولم ينصفوا وطلبوا مقادير الزكاة مضاعفة حتى ساءت أحوال الفقراء والأغنياء وإن بنسب متفاوتة بعض التفاوت.

وبعد عرض هذا التوازن المختلّ يتقدّم الراعي بطلبه تقدّما رفيقا ويتلطّف في تخيير الخليفة، فإمّا أن يترك قومه على ما هم عليه فيكون مصيرهم الهلاك والبوار، وإمّا أن يسعفهم فيعيد إليهم الحياة الطبيعيّة وترتفع بذلك رؤوسهم. وعلى هذا النحو جعل الشاعر الشكوى كلمة الختام وغرض القصيدة الأصلي وردّد ضمير الجمع التزاما منه بقضيّة قومه ومتحمّلا للمسؤوليّة وتبليغا للرسالة على سبيل التمثّل الفكريّ من ناحية والأداء الشعريّ من ناحية أخرى.فهو المهموم الّذي عليه أن يتفكّر وهو المشغول الّذي لا بدّ له من أن يتدبّر أمور أهله ويسعى في إنفاذ حاجتهم في غير كلل ولا فتور أيّا كانت مصاعب الطريق ومشاق السفر - يتجلى ذلك في قوله أثناء الرحلة [البسيط] :

تَطاوَلَ اللّيل من هَمّ تَضيّقَني دُونَ الأصَارم لَم يَشعرُ به أحَدُ
إلاّ نَجيَّة آرَاب تُقَلّبني كَمَا تقلّبَ في قرمُوصه الصّرِد
في صَدر ذي بَدوَات مَا تَزَالُ لَه بَزلاءُ يَعيَا بهَا الجَثّامَةُ اللّبِد
وعينُ مُضطَمِر الكَشْحين أرّقه همّ غريب وناوي حاجة أفِد [122]

وهذه الأبيات الفخرية لا تخلو معانيها من حقيقة إحساس وصدق لهجة تؤكّدهما سيرته المعروفة وأشعاره المألوفة. فهو في هذه القصيدة وفي سابقتها المهموم دون غيره، وهو في هذه القصيدة وفي سابقتها أيضا الأرق المتقلّب القلق دون سواه تتراءى له الآراء وتبدو له الحاجات

(121) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي، شعر الراعي النميري، 90 - 91.
(122) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي،شعر الراعي النميري، 86 - 87.

فتحمى لها نفسه ويسعى في إجرائها حثيثا عجلا. ويتجلّى مثل هذا في ما دار بينه وبين ابنته إذ يقول بعد الانتهاء من حديث الرحلة وقبل البدء في بثّ شكواه | البسيط | :

لَمّا رَأتْ مَا أُلاَقي من مُجَمْجَمَةٍ   هيَ النَّجيُّ إذَا مَا صُحبَتي هَجَدُوا
قَامَت هُنَيدَةُ تنهَاني فَقُلْتُ لَهَا   إنَّ المَنَايَا لميقَاتٍ لَهَا عَدَدُ
وَقُلتُ مَا لامرىء مثلي بأرضكُمُ   دُونَ الإمَامِ وخَير النَّاس مُتَّأدُ[123]

فاستبداد الفكر به دون أصحابه الّذين هجدوا ركونا الى الراحة والهدوء هو الذي دفعه الى المخاطرة وحمله على إعادة الكرّة بعدما فشل في المحاولة الأولى[124] ذلك أنّه يحمل الهموم وحده لا يشاطره في إحساسه مشاطر ولا يؤازره على أداء الأمانة مؤازر، وربّما كان هذا الأمر عاملا من العوامل المتآلفة[125] التي أرهفت وجدان الشاعر حتّى أحسّ بالظاهرة وشحذت ذهنه حتّى استوعب المسألة وتمثّلها وأيقظت وعيه حتّى التزم بالقضية إيمانا بعدالتها وما يقتضيه ذلك الإيمان من وجوب إثارتها والإصرار عليها.

من هنا شخّص الشاعر الداء الاجتماعيّ القائم فوجده متمثّلا في الظلم وألفى أعراضه متجسّمة في طغيان الجهاز الإداريّ على مجتمع القوم إذ يطؤهم بمنسم ويعلوهم بكلكل ويضرّسهم بأنياب ووجد أصوله راجعة إلى هيمنة الدولة على شؤون الناس وتحكّمها في مصائرهم، هذه الدولة التي انقلبت على أهلها وتنكّرت لذويها وخرجت عن أصل وظيفتها

(123) نوري حمودي القيسي وهلال ناجي،شعر الراعي النميري، 89.
(124) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين، 175.
(125) يمكن ان يتساءل المرء عن أصول تكون هذا الوعي وعن الأسس التي استمد منها هذا الضمير الجماعي مقوّماته، وربما مثّل هذا التساؤل مبحثا من المباحث قد يتناول قبيلة نمير بصفتها جمرة من جمرات العرب الأربع (المبرد، الكامل، 2 : 233) كما يتناول بيت عبد الله بن الحارث بن نمير بصفته بيت الرئاسة في قبيلته وهو جد الراعي (ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، 279) ثم يتطرق الى شخصية راعي الإبل ويبحث في حياته وتكوينه وسيرته وشعره عما عسى أن يكون قد ساهم - إن كثيرا أو قليلا - في تحديد الاتجاه الذي اختاره.

الحامية للرعية الحافظة لحقوقها الماديّة منها والأدبيّة وتفصّت من سنخ طبيعتها لتنبري كابوسا جاثما على صدر المجتمع تقيّد حركته وتكتم أنفاسه وتغتال روحه، وانقلب أعوان الجباية وساعو الزكاة إلى أصحاب عذاب [126] كما كانوا يسمّون. وربّما خرجوا من حين لآخر في صورة السباع الضاربة والوحوش المفترسة كما أظهرتهم بهذا المظهر عديد اللوحات التصويرية المعبرة.

كما شخّص الشاعر - وإن بطريقة غير مباشرة - المرهم الشافي فألفاه متمثّلا في العدل تتولاّه دولة القانون المنصف والمؤسّسات الشّرعية ووجده متجسّما في التّوازن الإيجابيّ بين طرفي المعادلة الاجتماعيّن، فلا المجتمع الأهليّ يهيمن على الدولة حتّى يختلّ النظام وتنفتح أبواب الفوضى على مصاريعها ويتعطّل سير الحياة الطبيعيّ، ولا الجهاز الإداري يطغى على المجتمع الأهليّ فيحلّ الاستبداد وتزهق النفوس ويرتبك الاجتماع الإنسانيّ.

والطريف هوأنّ هذا الطرح يبدو - إلى حدّ ما - من المسائل السياسيّة الاجتماعيّة التي مازالت المجتمعات الإنسانيّة تخوض فيها على سبيل التّصوّر والإجراء [127] لكنّ الأطرف هو أن الشاعر أكسب الموضوع بعده الفنّي من جهة صياغة القصيدة ونسج لحمتها واتّجاه معانيها ومن حيث الصور الفنية التي حفلت بها. والأعجب أن راعي بني نمير آمن بالقضية التي عنّت له إيمانا صادقا وسخّر لها مهجته في تفان [128] والتزم بها

---

(126) الجاحظ، الحيوان، 4 : 430، التنوخي، نشوار المحاضرة 1 : 69، المحاسن والمساوئ 148، 532، مسكويه، تجارب الأمم، 1 : 81.

(127) تعتبر هذه المسألة من المسائل التي شغلت بال الحكام منذ القديم .من ذلك أن الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور اعتبر صاحب الخراج ركنا من أركان الملك لا يصلح الملك الا بهم فقال : «والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم» (الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 6 : 313، ابن الاثير، الكامل في التاريخ، 5 : 51).

(128) علق بعض الأدباء على أصرار الراعي وعدم كلاله في طلب حاجة قومه فقال : «هو الذي يخطب الدراهم حتى أتت قومه» (ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين، 174).

التزاما مبدئيا خالصا قوامه الوفاء الصارم لقومه، فقد ضرب المثل في الترقّع والتجرّد والعفّة والسموّ كما يظهر من خلال المحادثة التي دارت بينه وبين خامس الخلفاء الأمويين بعد أن استجاب لطلبه المقدّم في قصيدته الثانية والمتمثّل في أن يردّ الخليفة الصدقات على قومه فينعشهم.

ويبدو أن عبد الملك بن مروان استحسن القصيدة هذه المرّة وفضّل نهايتها على القصيدة الأولى إذ قال : «أنت العام أعقل منك عام أول»[129] وقال في رده على الطلب : «قد فعلت، فسلني حاجة تخصّك، قال : قد قضيت حاجتي، قال : سل حاجتك لنفسك، قال : ما كنت لأفسد هذه المكرمة»[130].

ويظهر من سائر ما تقدّم أنّ الرّاعي - وهو ينتقي سجلّه من مراجع المكارم والمثل - ينافح عن القضيّة لجوهر ذاتها لا يطلب منفعة ولا يرقب مكسبا ولا ينشد امتيازا ولا ينتظر حظوة. ويبدو أنّ ردّ فعله الحيني لم يكن نزوة من النزوات العانّة ولا طفرة من الطفرات الظرفيّة، بل كان - في ما يظهر- ناتجا عن منهج صارم التزمه ورسالة نبيلة تحمّلها عسى أن يعرجا به إلى عالم الرفعة والشرف والخلود. ولعلّ من مصداق ذلك أنّه كان يقول في شأن قصيدته الأولى والثانية : «من لم يرو لي هذه القصيدة وقصيدتي :

بأن الأحبّة بالعهد الذّي عهدوا

من ولدي فقد عقني»[131]

هكذا أراد أن يعطي أثره الشعريّ هذا امتدادا متواصلا على مدى الحقب المتباعدة ليكسبه بعدا زمنيا مشهودا ،كما أراد أن يجعل أثره هذا ساريا في عقبه سريان الوفاء للقضيّة يحفظ كما تحفظ الوصايا الصميمة الخالدة ويتوارث كما تتوارث عقائد الإيمان السرمديّة[132].

---

(129) ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين، 175.

(130) الأصبهاني الأغاني، 24 : 178.

(131) عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، 1 : 502.

(132) لعل في مثل هذه الوصايا ما يذكّر بوصيّة ابراهيم الخليل لبنيه (سورة البقرة، الآية 132) ووصية يعقوب لبنيه (سورة البقرة، الآية 133).

ومهما يكن من أمر، فإنّ راعي الإبل - وإن لم ينشئ هذا الفنّ من القول - قد بلور المضمون وطوّره وجعل من الأفكار المؤلّفة له وحدة متماسكة المفاصل متكاملة المعاني وصاغ ذلك المضمون صياغة فنيّة محكمة أخرجته من دائرة ما يشبه المنزع المطلبيّ المباشر. وزاد على ذلك بأن جعل من المسألة المثارة قضيّة مبدئيّة التزم الدفاع عنها كأروع ما يكون الالتزام بما يقتضيه - في مراحله المختلفة - من حميّة نفس وجيشان حماس وتسخير مهجة وعجيب إصرار جعلته يتفانى ليؤدّي رسالته في أمانة وتجرّد.

والمحصّلة الجمليّة أنّ شكوى السعاة والولاة فنّ من القول مستحدث النشأة تاريخا ومضمونا فقد ظهر في أواسط الخلافة الراشدة واتّصل موضوعه بأحد أركان الإسلام، بدأ وحدة معنوية ضمّتها المقطوعة الشعرية وانتهى غرضا مستقلاّ حلّ محلّه ضمن بنية القصيدة ،فاتّخذ بالتتابع ثم بالتوازي مسارين اثنين مثّل أحدهما خاصة عبد الله بن همّام السلولي ومثّل ثانيهما بصفة أخصّ الراعي النميري وقد انطلق هذا الفنّ فكرة عرضية عانّة وانتهى قضيّة تثار والتزاما مبدئيّا يتوخّى وبدأ مظهرا مطلبيّا مباشرا أو شبه مباشر وانتهى صياغة فنيّة تعتمد النسيج المبرم وتنشد الإطراب والتأثير شأنها شأن شعب الفنون المغروفة.

أحمد الخصخوصي

ثبت المصادر والمراجع

أ - المصادر :

1 - ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الطبعة الأولى، إدارة الطباعة المنيرية بمصر.

2 - أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، شرحه وكتب هوامشه عبد الأمير علي مهنّا ويوسف جابر،الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت 1419 هـ/1992م.

3 - البغدادي، خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، المطبعة الميرية ببولاق، القاهرة، 1299هـ.

4 - البلاذري، أنساب الأشراف، مكتبة المثنّى، بغداد 1936.

5 - البلاذري ،فتوح البلدان، عني بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمدرضوان، دار الكتب العلمية : بيروت 1412هـ/1991م.

6 - البيهقي، المحاسن والمساوئ، دار صادر، بيروت، 1390هـ/1970 م.

7 - التنوخي، نشوار المحاضرة، تحقيق عبود الشالجي، 1391هـ/1971م.

8 - الجاحظ، البيان والتبيين، حققه وشرحه عبد السلام محمد هارون،الطبعة الرابعة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1365هـ/1975م.

9 - الجاحظ، الحيوان، حققه وشرحه عبد السلام محمد هارون، الطبعة الثانية 1389هـ/1969م.

10 - الراعي النميري، الديوان،درسه وحقّقه نوري حمودي القيسي وهلال ناجي مطبعة المجمع العلمي العراقي،بغداد، 1400هـ/1980م.

11 - ابن سلاّم الجمحي طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر.

12 - عبد الله بن همام السلولي، الديوان، جمعه وحققه وقدّم له رفيق بن حمودة، (مخطوطة حصل بها صاحبها سنة 1975 على شهادة الكفاءة في البحث من الجامعة التونسية).

13 - الطبري، تاريخ الرسل والملوك،مطبعة الاستقامة، القاهرة، 1958.

14 - ابن عبد ربّه، العقد الفريد،شرحه وضبطه ورتب فهارسه أحمد أمين وإبراهيم الأبياري وعبد السلام هارون الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي بيروت، 1411هـ/1980م.

15 - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، الطبعة الرابعة، دار الثقافة، بيروت، 1400هـ/ 1980م.

16 - ابن قتيبة، عيون الأخبار، شرحه وضبطه وعلّق عليه ورتّب فهارسه يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت.

17 - أبو زيد القرشي، جمهرة أشعار العرب، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، 1398هـ/1978م.

18 - المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وسيد شحاته، مطبعة نهضة مصر.

19 - مسكويه، تجارب الأمم، دار الكتاب اللبناني بشركة التمدّن الصناعية بمصر 1332هـ/1917م.

20 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1399هـ/1979م.

ب - المراجع :

- يوسف خليف، حياة الشعر في الكوفة إلى نهاية القرن الثاني للهجرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1388هـ/1968م.

- مبروك المناعيّ، الشعر والمال، بحث في آليات الإبداع عند العرب، من الجاهلية إلى نهاية القرن الثالث للهجرة / الموافق للقرن التاسع للميلاد، الطبعة الأولى، منشورات كلية الآداب بمنوبة. تونس 1998.